

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية . آياتها سبعون وست آيات . كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾

نصف
الحزب
١٨

قال البخاري (١) : قال ابن عباس : الأنفال الغنائم ، حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان ، أخبرنا هشيم أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبيرة قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما : سورة الأنفال ، قال : نزلت في بدر . أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : الأنفال الغنائم ، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد : إنها المغنم ، وقال الكلبي ، عن أبي صالح عن ابن عباس (٢) أنه قال : الأنفال المغنم ، قال فيها لبيد :

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ وَإِذْنَ اللَّهِ رَيْشِي وَعَجَلٌ

وقال ابن جرير (٣) : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني مالك بن أنس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد قال : سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : الفرس من النفل والسلب من النفل . ثم عاد لمسأله فقال ابن عباس ذلك أيضاً ثم قال الرجل : الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي ؟ قال القاسم : فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب .

وقال عبد الرزاق (٤) أخبرنا معمر عن الزهري عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا سئل عن شيء قال : لا أمرك ولا أنهاك . ثم قال ابن عباس : والله ما بعث الله نبياً ﷺ إلا زاجراً أمراً محلاً محرماً . قال القاسم : فسلب على ابن عباس رجل يسأله عن الأنفال فقال ابن عباس : كان الرجل يُنْفَلُ فرس الرجل وسلاحه ، فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك ، ثم عاد عليه حتى أغضبه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سألت الدماء على عقبيه أو على رجله ، فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، أنه فسر النفل بما يتفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل ، والله أعلم .

(١) البخاري (٤٦٤٥) .

(٢) إسناده ضعيف : فيه الكلبي وهو محمد بن السائب كذاب ساقط . انظر أحوال الرجال (٢٧٣٧٢) .

(٣) صحيح : ابن جرير في تفسيره (١٧٠/٩) ، وكذلك أخرجه مالك في موطنه (٩٧٤) .

(٤) صحيح : تفسير عبد الرزاق (٢٣١/١) .

وقال ابن أبي نجيح^(١) عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس، فنزلت ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف، رواه ابن أبي حاتم عنهما، وقال ابن المبارك وغير واحد عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح في الآية ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء، وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال. قال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا علي بن صالح بن حيي، قال بلغني في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال السرايا، ويعنى هذا ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش. وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادات على القسم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد،^(٢) حيث قال: حدثنا أبو معاوية حدثنا أبو إسحاق الشيباني عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به النبي ﷺ فقال: «اذهب فاطرحه في القبض» قال فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله، من قتل أخى وأخذ سلبى، قال فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لى رسول الله ﷺ «اذهب فخذ سيفك».

وقال الإمام أحمد أيضاً:^(٣) حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر عن عاصم بن أبي النجود عن مصعب بن سعد عن سعد بن مالك، قال: قلت يا رسول الله قد شغاني الله اليوم من المشركين، فهب لى هذا السيف، فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لى، ضعه» قال: فوضعت، ثم رجعت فقلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يلى بلاتى، قال: فإذا رجل يدعونى من ورائى قال: قلت قد أنزل الله فى شيئاً؟ قال: كنت سألتنى السيف وليس هو لى، وإنه قد وهب لى، فهو لك. قال: وأنزل الله هذه الآية ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. ورواه أبو داود والترمذى والنسائى^(٤) من طرق عن أبى بكر بن عياش به.

وقال الترمذى: حسن صحيح، وهكذا رواه أبو داود الطيالسى،^(٥) أخبرنا شعبة أخبرنا سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد، قال: نزلت فى أربع آيات، أصبت سيفاً يوم بدر فأتيت النبي ﷺ فقلت نفلنى، فقال «ضعه من حيث أخذته» مرتين، ثم عاودته فقال النبي ﷺ «ضعه من حيث أخذته» فنزلت هذه الآية ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ وتمام الحديث، فى نزول ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِرَأْسِهِ حَسَنًا﴾ [المنكوب: ٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ وَالْقَبْرِ وَالنَّبِيِّ﴾ [آية الوصية]. وقد رواه مسلم فى صحيحه^(٦) من حديث شعبة به، وقال محمد بن إسحاق:^(٧) حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن بعض بنى ساعدة قال: سمعت أباً أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائد يوم بدر، وكان السيف

(١) مرسل: رواه ابن جرير فى تفسيره (١٧٠/٩).

(٢) صحيح: المسند (١٥٥٦).

(٣) صحيح: المسند (١٥٣٨).

(٤) صحيح: أبو داود (٢٧٤٠)، الترمذى (٣٠٧٩)، النسائى فى الكبرى (٣٤٨/٦)، برقم (١١١٩٦).

(٥) صحيح: مسند الطيالسى (٢٨/١) برقم (٢٠٨).

(٦) مسلم برقم (١٧٤٨).

(٧) رواه ابن جرير فى تفسيره (١٧٣/٩).

يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت به فآلقته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله، فراه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه، ورواه ابن جرير من وجه آخر^(١).

(سبب آخر في نزول الآية): وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر، نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فانزعجه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين، عن بواء يقول: عن سواء. وقال الإمام أحمد أيضاً^(٣): حدثنا معاوية بن عمرو أخبرنا أبو إسحاق عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، عن سليمان بن موسى عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل - وكل الناس - راجعًا نفل الثلث، وكان يكره الأنفال، ويقول: «ليرد قوى المؤمنين على ضعيفهم» ورواه الترمذي وابن ماجه^(٤) من حديث سفیان الثوري عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه.

وقال الترمذي: هذا حديث صحيح، ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدرکه^(٥)، من حديث عبد الرحمن بن الحارث، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، وروى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له، وابن حبان والحاكم^(٦) من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس، قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا» فتسارع في ذلك شبان الرجال وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغنم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإننا كنا ردة لكم لو انكشفتم لفتتم إلينا. فتنازعوا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) ابن جرير في تفسيره (١٧٤/٩) من طريق يحيى بن عمران عن جده عثمان.

(٢) صحيح: المسند (٢٢٨٥٢).

(٣) صحيح: المسند (٢٢٨٦٧) انظر مجمع الزوائد (٢٦/٧).

(٤) صحيح: الترمذي (١٥٦١)، ابن ماجه (٢٨٥٢).

(٥) صحيح: ابن حبان (١٩٣/١١) برقم (٤٨٥٥)، الحاكم (١٣٦/٢).

(٦) صحيح: أبو داود (٧٢٧٣٧)، النسائي في الكبرى (٣٤٩/٦)، برقم (١١١٩٧)، وابن جرير في تفسيره (٩/

١٧٢)، ابن حبان في صحيحه (٤٩٠/١١)، برقم (٥٠٩٣)، الحاكم في المستدرک (٤١/٢) برقم (٢٨٧٦).

وقال الثوري^(١) عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ «من قتل قتيلًا فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا». فجاء أبو اليسر بأسيرين فقال: يا رسول الله وعدتنا، فقام سعد بن عبادَةَ فقال: يا رسول الله، إن أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك نخاف أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا ونزل القرآن ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، قال ونزل القرآن ﴿وَأَطِئُوا أَمْرًا غَنَمْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَنَّهُ لَكُمْ خُمْسُهُ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] إلى آخر الآية، وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها» ، أما الأنفال فهي المغنمات وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى، قلت هكذا روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس سواء، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدى.

وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة، قال أبو عبيد وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة، ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصهم الله به تطولاً منه عليهم بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل، قلت: شاهد هذا ما فى الصحيحين^(٢) عن جابر رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى» - فذكر الحديث إلى أن قال: «وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى». وذكر تمام الحديث، ثم قال أبو عبيد: ولهذا سُمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والتكايه فى العدو، وفى النفل الذى ينقله الإمام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى:

(فإحداهن): فى النفل لا خمس فيه، وذلك السلب.

(والثانية): فى النفل الذى يكون من الغنيمه بعد إخراج الخمس وهو أن يوجه الإمام السرايا فى أرض الحرب، فتأتى بالغنائم، فىكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس.

(والثالثة): فى النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمه كلها، ثم تخمس فإذا صار الخمس فى يدى الإمام، نفل منه على قدر ما يرى.

(والرابعة): فى النفل فى جملة الغنيمه قبل أن يخمس منها شيء، وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها. وفى كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعى: الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمه قبل الخمس شيء غير السلب. قال أبو عبيد: والوجه الثانى من النفل هو شيء زيدوه غير الذى كان لهم وذلك من خمس النبى ﷺ، فإن له

(١) ضعيف: أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٩٤٨٣)، عن الثوري وأخرجه أبو داود (٢٧٣٨) من طريق أخرى عن ابن عباس، وسنده صحيح.

(٢) البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١).

خمس الخمس من كل غنيمة، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم وقل من بإزائه من المسلمين، نفل منه اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ وإذا لم يكن ذلك لم ينفل (والوجه الثالث): من النفل إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً فقال لهم قبل اللقاء من غنم شيئاً، فهو له، بعد الخمس، فذلك لهم على ما شرط الإمام، لأنهم على ذلك غزوا وبه رضوا، انتهى كلامه. وفيما تقدم من كلامه وهو قوله: إن غنائم بدر لم تخمس، نظر. ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب، في شافيه اللذين حصل له من الخمس يوم بدر، وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً^(١)، ولله الحمد والمنة. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في قسمه بينكم على ما أراه الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم وكذا قال مجاهد، وقال السدي ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي لاتستبوا.

ولنذكر ههنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلى رحمه الله، في مسنده فإنه قال: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا عباد بن شيبه الحبطي عن سعيد بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله؟ بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان جثيا من أمتي بين يدي رب العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخى. قال الله تعالى، أعط أخاك مظلمته، قال: يا رب لم يبق من حسناتي شيء قال: رب فليحمل عنى من أوزاري». قال: ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال «إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأى نبي هذا؟ لأى صديق هذا؟ لأى شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن، قال رب ومن يملك ذلك؟ قال أنت تملكه، قال: ماذا يا رب؟ قال: تعفو عن أخيك، قال: يا رب، فإنى قد عفوت عنه، قال الله تعالى: خذ بيد أخيك، فادخلا الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»^(٢)

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ﴾. قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه. ولا يؤمنون بشيء من آيات الله

(١) السيرة لابن كثير (٢/٤٦٦).

(٢) ضعيف جداً: أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/٦٢٠)، برقم (٨٧١٨) من طريق عبد الله بن بكر عن عباد بن شيبه الحبطي، في إسناده عباد بن شيبه الحبطي ذكره ابن حبان في المجروحين (٢/١٧١)، وقال: منكر الحديث جداً، على قلة روايته، لا يجوز الاحتجاج به، لما انفرد به من الناكير. ا هـ.

ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت أى فزعت وخافت، وكذا قال السدى وغير واحد، وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذى إذا ذكر الله وجل قلبه أى خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِيصَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَنَسَتْغَفَرُوا لِدُؤُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنْ يَكُنَّ اللَّهُ لَكُمْ بِشَيْئًا مُّغْنًى فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَعَلَّهَا لَيْسَ مِنْهَا أَلَمٌ لِّمَنْ يَخِفَّ عَلَيْهَا لَخِفَتِ لَهُ نَافِثَاتُ النَّفْسِ الَّتِي حَوَسَتْ مِنَ الْإِنسَانِ إِنَّهَا فَخْرَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدى يقول فى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾. قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال: بهم بمعصية فيقال له: اتق الله فيجل قلبه، وقال الثوري أيضاً عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء فى قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قالت: الوجل فى القلب كإحراق السعفة، أما تجده له شعيرة؟ قال: بلى. قالت: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك، وقوله ﴿وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، كقوله ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًىٰ أَوْ إِنَّمَا آيَاتُ الْذُرِّيرِ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد استدلل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهاها على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد، كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى، ولله الحمد والمنة، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك، وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١) ينه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواعيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواعيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبى ﷺ، هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب. والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفسهم لخلقهم. قال قتادة فى قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، فأنفقوا مما رزقكم الله فإنما هذه الأموال عوار وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها.

وقوله ﴿أَزَلَيْكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، أى المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. وقال الجافظ أبو القاسم الطبرانى^(١): حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى، حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن

(١) ضعيف: المعجم الكبير (٣/٦٦٦)، برقم (٣٣٦٧). قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧): رواه الطبرانى فى

الحباب، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد السكسكى عن سعيد بن أبى هلال عن محمد بن أبى الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصارى، أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: «أصبحت مؤمناً حقاً»، قال: «انظر ماذا تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى، وكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: «يا حارث عرفت فالزم» ثلاثاً.

وقال عمرو بن مرة فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك: فلان سيد حقاً، وفى القوم سادة. وفلان تاجر حقاً، وفى القوم تجار. وفلان شاعر حقاً، وفى القوم شعراء. وقوله ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى منازل ومقامات ودرجات فى الجنات كما قال تعالى: ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣] ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاک فى قوله ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فىرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه، ولا يرى الذى هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد، ولهذا جاء فى الصحيحين^(١) أن رسول الله ﷺ قال «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء».

قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال: «بلى والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(٢) من حديث عطية عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «إن أهل الجنة ليرآون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعم».

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ۝٦١﴾ ﴿بُجِدَلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٦٢﴾ ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدَّدُونَ أَنْ عَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٦٣﴾ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٦٤﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبرى: اختلف المفسرون فى السبب الجالب لهذه (الكاف) فى قوله ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم شبه به فى الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله، ثم روى عن عكرمة نحو هذا، ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم فى المغنم وتشاحتم فيها فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمة، وقسم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز غيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال

الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه. وانظر الإصابة.

(١) البخاري (٣٢٥٦)، مسلم (٢٨٣١) من حديث أبى سعيد الخدري.

(٢) ضعيف الإسناد: أحمد برقم (١٠٨٢٩)، أبو داود (٣٩٨٧)، الترمذي (٣٦٥٨)، ابن ماجه (٩٦). فى إسناده عطية الموفى، وهو ضعيف الحديث.

بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصرًا وفتحًا، كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

قال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾، على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم. ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ قال كذلك يجادلونك في الحق، وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه، فقال ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاهِنُونَ ﴾ لطلب المشركين ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَدْمًا بَيِّنًا ﴾ .

وقال بعضهم يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا أخرجتنا للغير ولم تعلمنا قتالا فنستعد له. قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبًا لغير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيرًا إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقْتَعٍ ما بين التسعمائة إلى الألف وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فتجا وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونهزمهم على عدوهم والفرقة بين الحق والباطل كما سيأتي بيانه، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿ وَوَدِدُوا أَنْ عَبَّرَ زَاتِ الْشَّوْكَةِ كَثُوتٌ لَّكُورٌ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره^(١): حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم بن أبي عمران، حدثنا أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها؟» فقلنا نعم، فخرج وخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين، قال لنا «ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكننا أردنا العير، ثم قال «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو: إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى ﴿ فَأَذْهَبَ أَتَى وَرَبُّكَ فَتَنَبَّأَ إِنَّهَا هُنَا فَوَدِدْتُ ﴾ [المائدة: ٢٤] قال فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاهِنُونَ ﴾^(٢) وذكر تمام الحديث، ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن لهيعة بنحوه، وروى ابن مردويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن أبي وقاص الليثي، عن أبيه عن جده قال خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال «كيف ترون؟» فقال أبو بكر

(١) حسن: رواه الطبراني (١٧٤/٤) برقم (٤٠٥٦)، انظر «مجمع الزوائد» (٧٤/٦).

رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا .

قال : ثم خطب الناس فقال «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال : «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ يا رسول الله إيانا تريد؟» فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لى بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذى يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَتَلُوكَ﴾ [الطه: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له، فَصِلْ حِبَالَ مَنْ شِئْتَ، واقطع حبال من شئت، وعَادِ مَنْ شِئْتَ، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ والآيات، وقال العوفى عن ابن عباس لما شاور النبى ﷺ فى لقاء العدو، وقال له سعد بن عباد ما قال وذلك يوم بدر أمر الناس فعبثوا للقتال وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١﴾ .

وقال مجاهد يجادلونك فى الحق : فى القتال، وقال محمد بن إسحاق ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ أى كراهية للقاء المشركين، وإنكارًا لمسير قريش حين ذكروا لهم، وقال السدى : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ أى بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به . قال ابن جرير وقال آخرون عنى بذلك المشركين، حدثنا يونس أنبأنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله تعالى : ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ قال هؤلاء المشركون جادلوه فى الحق ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ . قال وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر .

ثم قال ابن جرير : ولا معنى لما قاله، لأن الذى قبل قوله ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان والذى يتلوه خبر عنهم . والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق : إنه خبر عن المؤمنين، وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق وهو الذى يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم . وقال الإمام أحمد رحمه الله ^(١) : حدثنا يحيى بن بكير وعبد الرزاق قالا : حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر : عليك بالعبير ليس دونها شىء، فناداه العباس بن عبد المطلب، قال عبد الرزاق وهو أسير فى وثاقه ثم اتفقا : أنه لا يصلح لك، قال ولم؟ قال لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك الله ما وعدك، إسناد جيد ولم يخرجوه، ومعنى قوله تعالى : ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّرَكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أى يحبون أن الطائفة التى لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهى العبير، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أى هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالبًا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذى يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كما قال : ﴿كَيْبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

شَيْبَاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْبَاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴿البقرة: ٢١٦﴾ .

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس، كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر، قالوا لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله آي ينفلكموها» فانتدب الناس فحف فحف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، حتى بلغ وادياً يقال له (ذفران)، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأناه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال، فأحسن.

ثم قام عمر رضي الله عنه فقال، فأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَوَدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد، يعني مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم خيراً ودعاه بخير، ثم قال رسول الله ﷺ «أشيروا على أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله إنا برآء من زمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في زماننا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» فقال: قد آمنت بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم»^(١) وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي وقاتدة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق.

(١) حسن: رواه ابن جرير في تفسيره (١٨٥/٩)، من طريق محمد بن إسحاق به.

﴿إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَتَطْمَئِنُّ بِيَدِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِّنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾﴾
قال الإمام أحمد (١) : حدثنا أبو نوح قراد، حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زُمَيْل،

حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر، نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال «اللهم أين ما وعدتني اللهم أنجز لى ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدا» قال فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط فأناء أبو بكر فأخذ رداؤه - ألبسه - فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال : يابى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل ﴿إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿١﴾﴾ فلما كان يومئذ التقوا، فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً فقال رسول الله ﷺ «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال : قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكنى أرى أن تمكنتي من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هودة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر فغدوت إلى النبي ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان فقلت : يا رسول الله ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

قال النبي ﷺ «الذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة من النبي ﷺ وأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أُسْرَى حَتَّى يُنْفِخَ فِي الْأَرْضِ﴾ من الفداء إلى قوله : ﴿أَوَّلًا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨] ثم أحل لهم الغنائم . فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] بأخذكم الفداء، ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن مردويه (٢) من طرق عن عكرمة بن عمار به وصححه على بن المدينى والترمذى وقالوا لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني وهكذا روى على بن أبى طلحة والعمرفى عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله ﴿إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فى دعاء النبي ﷺ، وكذا قال يزيد بن تبيع والسدى وابن جرير، وقال أبو بكر بن عياش عن أبى حصين عن أبى صالح قال : لما كان يوم بدر جعل النبي ﷺ يناشد ربه

(١) صحيح : أحد فى المسند (٢٠٨).

(٢) مسلم (١٧٦٣) ، أبو داود (٢٦٩٠) ، الترمذى (٣٠٨١) ، وابن جرير فى تفسيره (١٨٩/٩).

أشدُّ التُّشَدَّةِ يدعو فاتاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا رسول الله بعضُ نَشِدَتِكَ فو الله ليفين الله لك بما وعدك، قال البخارى (١) فى كتاب المغازى باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿فَكَرَبَ اللَّهُ شِدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣] حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَتَّ وَرَبِّكَ فَفَنِيلاً﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره - يعنى قوله - . وحدثنى (٢) محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر اللهم أنشدك عهدك وعهدك اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك فخرج وهو يقول ﴿يَوْمَئِذٍ يُلْحَقُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمع: ٤٥] ورواه النسائى (٣) عن بندار عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى وقوله تعالى ﴿يَأْتِيَنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ أى يردف بعضهم بعضاً كما قال هارون بن عنتره عن ابن عباس ﴿مُرَدِّينَ﴾ متتابعين ويحتمل أن المراد ﴿مُرَدِّينَ﴾ لكم أى نجدة لكم كما قاله العوفى عن ابن عباس ﴿مُرَدِّينَ﴾ يقول المدد كما تقول أيت الرجل فزده كذا وكذا وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارى وابن زيد ﴿مُرَدِّينَ﴾ ممدين، وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس ﴿مُمِدِّكُمْ يَأْتِيَنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ قال وراء كل ملك ملك . وفى رواية بهذا الإسناد ﴿مُرَدِّينَ﴾ قال بعضهم على أثر بعض وكذا قال أبو ظبيان والضحاك وقتادة، وقال ابن جرير (٤) : حدثنى المشنى حدثنا إسحاق حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى حدثنى عبد العزيز بن عمران عن الزمعى عن أبى الحويرث عن محمد جبير عن على رضى الله عنه قال: نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا فى الميسرة . وهذا يقتضى إن صح إسناده أن الألف مردفة بمثلها ولهذا قرأ بعضهم ﴿مُرَدِّينَ﴾ بفتح الدال، والله أعلم .

والمشهور ما رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مجنبة، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة، وروى الإمام أبو جعفر بن جرير ومسلم (٥) من حديث عكرمة بن عمار عن أبى زميل سماك بن وليد الحضى عن ابن عباس، عن عمر الحديث المتقدم، ثم قال أبو زميل: حدثنى ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً قال فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فأنحصر قلبك أجمع فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك من مدد السماء

(٢) البخارى (٣٩٥٣).

(١) البخارى (٣٩٥٢).

(٣) النسائى فى الكبرى (١١٥٥٧).

(٤) ضعيف: ابن جرير فى تفسيره (١٩٢/٩)، فى سننه عبد العزيز بن عمران: منكر الحديث.

(٥) مسلم (١٧٦٣).

الثالثة، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقال البخارى (١) : باب شهود الملائكة بدرًا. حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة. انفراد بإخراجه البخارى وقد رواه الطبرانى (٢) فى المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج وهو خطأ، والصواب رواية البخارى والله أعلم، وفى الصحيحين (٣) أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره فى قتل حاطب بن أبى بلتعة «إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» .

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أى وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك ولهذا قال ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كما قال تعالى ﴿فَإِذَا قِيضَتِ الْأَنْفُسُ كَفَرُوا فَصَرَبَ الرَّاقِبُ حَتَّى إِذَا انْفَضُّوا فَشَدُّوا الرِّبَاقَ فَمَا مَاتَ بَعْدَ وَوَمَا فِيهِ حَتَّى تَصَعَ لِرَبِّهِ أَوْزَارَهُمْ ذَلِكَ وَلَوْ بَشَاةُ اللَّهِ لَأَنْصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُؤَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدِّلَ أَعْمَالَكُمْ سَبْتِهِمْ وَيَصْلِحُ بِالْمَالِ وَيُنْجِيهِمُ الْفِتْنَةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ [محمد: ٤-٦] وقال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَجِّدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١] فهذه حِكْمُ شرع الله جهاد الكفار بأيدى المؤمنين لأجلها وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التى تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادًا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق فى اليم ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم فى بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا ءَاهَلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ﴾ [القصص: ٤٣] وقتل المؤمنين للكافرين، أشد إهانة للكافرين، وأشقى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة ﴿فَتَلَوْتُمْ بِمِذَّبِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدى أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشقى لصدور حزب الإيمان، فقتل أبى جهل فى معركة القتال وحموة الوغى أشد إهانة له أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، إنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورجموه حتى دفنوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ [خانر: ٥١-٥٢] ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى .

(٢) الطبرانى فى الكبير (٤/٢٧٧)، برقم (٤٤١٢).

(١) البخارى (٣٩٩٢).

(٣) البخارى (٣٠٠٧)، مسلم (٢٤٩٤).

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ إِنِّي مَعَكُمْ فَاذْبَنُوا الَّذِينَ الَّذِينَ سَأَلْتُمْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوَقَّ الْأَعْتَابِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ذَلِكَ كَمَا فَدُوهُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۝﴾

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَدْرِ أَلْغَمٍ أَمَنَةً مَّا سَأَلْتُمْ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [ال عمران: ١٥٤] الآية، قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، ولقد نظرت إليهم يميّدون وهم تحت الحجف، وقال الحافظ أبو يعلى^(١) حدثنا زهير حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح.

وقال سفیان الثوري عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان، وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب، قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد وأمر ذلك مشهور جداً، وأما يوم بدر فهذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً وكان ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم أمانة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبسماً فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثنابيه النقع» ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيَهَيِّئُ لَكُمْ الْيَمْعَ وَيَوْلُونَ الذُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وقوله ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ - يعني حين سار إلى بدر - والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنين فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وأنشف الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة.

وكذا قال العوفي عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها

(١) صحيح: أبو يعلى في مسنده (١/٢٤٢)، برقم (٢٨٠).

نزّلوا على الماء يوم بدر فغلبوا المؤمنين عليه فأصاب المؤمنين الظمّاء فجعلوا يصلون مجنين محدثين حتى تعاضموا ذلك في صدورهم فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي فشرّب المؤمنون وملؤوا الأسقية وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة فجعل الله في ذلك طهوراً وثبت الأقدام وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها فضربها حتى اشتدت وثبتت عليها الأقدام. ونحو ذلك روى عن قتادة والضحاك والسدي، وقد روى عن سعيد بن المسيب والشعبي والزهرى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه طش أصابهم يوم بدر.

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أي أول ماء وجده فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله فليس لنا أن نجاوزه أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة» فقال يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك، وفي مغازي الأمور أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ﷺ فقال ذلك الملك، يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك إن الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام فقال: «هل تعرف هذا؟ فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم وإنه ملك وليس بشيطان. وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي رحمه الله حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهشنا فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه مالبس لهم الأرض، ولم يمنعمهم من المسير وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه^(١) وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فاطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا هارون بن إسحاق حدثنا مصعب بن المقدام حدثنا إسرائيل حدثنا أبو إسحاق عن حارثة عن علي بن رضى الله عنه قال: أصابنا من الليل طش من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر ويات رسول الله ﷺ يدعو ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فلما أن طلع الفجر نادى الصلاة عباد الله فجاء الناس من تحت الشجر والحجف فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرّض على القتال. وقوله ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ أي من حدث أصفر أو أكبر وهو تطهير الظاهر ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِيحَ الشَّيْطَانِ﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنة ﴿عَلَيْهِمْ تَابٌ سُنْدِينَ خُضْرًا وَاسْتَبْرَقًا وَكُلُوا وَسَارُوا مِنْ فِيضِهِ﴾ [الإنسان: ٢١] فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي مطهراً الما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته ﴿وَلَا يَطِئُ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿وَوُثِّبَتْ بِهِ الْأَقْدَامُ﴾ وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتُنَادُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه

(٢) صحيح: الطبري في تفسيره (١٩٤/٩).

(١) ذكره الطبري في تاريخه (٢/٢٩).

ودينه وحزبه المؤمنين يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يشتروا الذين آمنوا قال ابن إسحاق: وأزروهم . وقال غيره: قاتلوا معهم، وقيل: كثروا سوادهم وقيل كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم يعنى المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لنتكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم حكاة ابن جرير وهذا لفظه بحروفه، وقوله ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَأَيْتَ﴾ أى ثبتوا أنتم المؤمنین وقورا أنفسهم على أعدائهم عن أمرى لكم بذلك سألتى الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمرى وكذب رسولى ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أى اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهى أيديهم وأرجلهم وقد اختلف المفسرون فى معنى ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة وقيل معناه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أى على الأعناق وهى الرقاب قاله الضحاك وعطية العوفى ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا لَنَنظُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرَبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَكْثَشْتُمُوهُمُ قَتَلُوا أَلْوَابِقَ﴾ [محمد: ٤] وقال وكيع عن المسعودى عن القاسم قال: قال النبي ﷺ «إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعثت لضرب الرقاب وشد الوثاق»^(١) واختار ابن جرير أنها تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام، قلت وفى مغازى الأموى أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول «فلق هاماً» فيقول أبو بكر:

.... من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فبتدىء رسول الله ﷺ بأول البيت ويستطعم أبا بكر رضى الله عنه إنشاد آخره لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به، وقوله ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

وقال ابن جرير: معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة كما قال الشاعر:

ألا ليتنى قطعت منى بنانة ولاقيته فى البيت يقظان حاذرا

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعنى بالبنان الأطراف وكذا قال الضحاك وابن جريج: وقال السدى البنان الأطراف ويقال كل مفصل وقال عكرمة وعطية العوفى والضحاك فى رواية أخرى كل مفصل .

وقال الأوزاعى فى قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال اضرب منه الوجه والعين واره بشهاب من نار فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك وقال العوفى عن ابن عباس: فذكر قصة بدر إلى أن قال: فقال أبو جهل لا تقتلوهم قتلا ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم فى دينكم ورجبتهم عن اللات والعزى فأوحى الله إلى الملائكة ﴿أَيُّ مَعَكُمْ فَتَبَرُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَأَيْتَ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، فقتل أبو جهل لعنه الله فى تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبى معيط فقتل صبياً فوفى ذلك سبعين يعنى قتيلاً ولهذا قال تعالى:

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبى شيبه فى مصنفه (٤٨٥/٦)، برقم (٣٣١٤٥) عن وكيع به، فى سننه إرسال .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاؤُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى خالفوهما فساروا فى شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه فى شق، وهو مأخوذ أيضًا من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَرَبَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى هو الطالب الغالب لمن خالفه وناواه لا يفوته شىء ولا يقوم لغضبه شىء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ذَلِكَ لَكُمْ فَدَوُّهُ وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ النَّارِ﴾ ﴿١١﴾ هذا خطاب للكفار أى ذوقوا هذا العذاب والنكال فى الدنيا واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار فى الآخرة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَ لَهُمُ الْكُفْرُ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ ﴿١٢﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَيْكَ فَشَقَّ لَكَ فَتْرًا فَقَدْ بَكَءَ بِمَقْصِبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَدَهُ جَهَنَّمُ وَبَشِّرِ الْمُصِيبُ﴾ ﴿١٣﴾

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَ لَهُمُ الْكُفْرُ زَحْفًا﴾ أى تقاربتم منهم ودنوتهم منهم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أى تفروا وتركوا أصحابكم ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ﴾ أى يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه فى ذلك نص عليه سعيد بن جبير والسدى، وقال الضحاك أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها ﴿أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَيْكَ فَشَقَّ﴾ أى فر من ها هنا إلى فتة أخرى من المسلمين يعاونونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك حتى لو كان فى سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل فى هذه الرخصة.

قال الإمام أحمد ^(١) : حدثنا حسن حدثنا زهير حدثنا يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حصية فكنت فىمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ويؤنا بالغضب؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة، فبتنا، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال «من القوم؟» فقلنا نحن الفرارون فقال «لا يلى أنتم العكارون أنا ففتكم وأنا فتة المسلمين» قال فأتيناه حتى قبلنا يده.

وهكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ^(٢) من طرق عن يزيد بن أبى زياد وقال الترمذى : حسن لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى زياد ورواه ابن أبى حاتم من حديث يزيد بن أبى زياد به، وزاد فى آخره وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَيْكَ فَشَقَّ﴾ قال أهل العلم معنى قوله «العكارون» أى العطافون، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أبى عبيدة لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس فقال عمر لو انحاز إلى لكنت له فتة هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر، وفى رواية أبى عثمان النهدي عن عمر قال لما قتل أبو عبيدة قال عمر : أيها الناس أنا ففتكم، وقال مجاهد قال عمر أنا فتة كل مسلم، وقال عبد الملك بن عمير عن عمر أيها الناس لا تفرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فتة كل مسلم.

(١) ضعيف : المسند (٥٣٨٤). فى إسناده يزيد بن أبى زياد تكلم فيه غير واحد من الأئمة.

(٢) ضعيف : أبو داود (٢٦٤٧)، الترمذى (١٧١٦)، ابن ماجه (٣٧٠٤).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حسان بن عبد الله المصري حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي حدثنا نافع أنه سأل ابن عمر قلت إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندرى من الفئة إمامنا أو عسكرنا؟ فقال إن الفئة رسول الله ﷺ فقلت إن الله يقول: ﴿إِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا زَعَمًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾، فقال إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها، وقال الضحاك في قوله ﴿أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ مَلَأَ فِتْرًا﴾ المتحيز الفار إلى النبي ﷺ وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين^(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» ولهذا الحديث شواهد من وجوه آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَكَتْ﴾ أى رجع ﴿يَنْصَبُ مِنَ اللَّهِ وَمَاؤُهُ﴾ أى مصيره ومنقلبه يوم مياعده ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبد الله بن عمر الرقى عن زيد بن أبي أنيسة حدثنا جبلة بن سحيم عن أبي المثنى العبدى سمعت السدوسى يعنى ابن الخصاصية وهو بشير بن معبد قال أتيت النبي ﷺ لأبايعه فاشتراط على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدى الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد فى سبيل الله، فقلت يا رسول الله أما اثنان فو الله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسى وكرهت الموت، والصدقة فو الله مالى إلا غنيمة وعشر ذؤدٍ من رسل أهلى وحمولتهم، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم قال: «فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذا؟» فقلت يا رسول الله أنا أبايك فبايعته عليهن كلهن، هذا حديث غريب من هذا الوجه ولم يخرجوه فى الكتب الستة.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى^(٣) حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر حدثنا يزيد بن ربيعة حدثنا أبو الأشعث عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف» وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

وقال الطبرانى^(٤) أيضاً حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حفص بن عمر الشنى حدثنى عمرو بن مرة قال سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله ﷺ قال سمعت أبى يحدث عن جدى قال: قال رسول الله ﷺ «من قال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فر من الزحف» وهكذا رواه أبو داود^(٥) عن موسى بن إسماعيل به، وأخرجه

(١) البخاري (٢٧٦٦)، مسلم (٨٩).

(٢) صحيح الإسناد: أحد فى المسند (٢١٤٤٥)، قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٤٢/١): ورجال أحمد موثقون.

(٣) ضعيف: الطبرانى (٩٥/٢)، برقم (١٤٢٠)، قال فى مجمع الزوائد (١٠٤/١): فيه يزيد بن ربيعة، ضعيف جداً.

(٤) صحيح: الطبرانى فى الكبير (٨٩/٥) (٤٦٧٠).

(٥) صحيح: أبو داود (١٥١٧).

الترمذي^(١) عن البخاري عن موسى بن إسماعيل به وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، قلت ولا يعرف لزيد مولى النبي ﷺ عنه سواء، وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة؛ لأنه -يعني الجهاد- كان فرض عين عليهم، وقيل على الأنصار خاصة لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره. وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ونافع مولى ابن عمر وسعيد بن جبير والحسن البصري وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم، وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة فيثبون إليها سوى عصابتهم تلك كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»^(٢) ولهذا قال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن في قوله «وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ» قال ذلك يوم بدر فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه قال فلا بأس عليه.

وقال ابن المبارك عن المبارك أيضا عن ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار قال «وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَوْلِ إِنْ فَتَوْا فَقَدْ بُعَاةٌ يَنْحَسِبُونَ إِلَهُهُ» فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا» إلى قوله: «وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ» [إل عمران: ١٥٥] ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال «ثُمَّ وَاسْتَمْتُمْ مُدْرِيكًا» [التوبة: ٢٥] «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» [التوبة: ٢٧] وفي سنن أبي داود والنسائي ومستدرک الحاكم وتفسير ابن جرير^(٣) وابن مردويه من حديث داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية «وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ» إنما أنزلت في أهل بدر، وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من المواقف كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

﴿قَلَّمَ قَتْلُوهُمْ وَلِكَيْنَ اللَّهُ قَلَّلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَيْنَ اللَّهُ رَحِيمٌ وَلِيُسَبِّلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه ولهذا قال: «قَلَّمَ قَتْلُوهُمْ وَلِكَيْنَ اللَّهُ قَلَّلَهُمْ» أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتهم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم. أي بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ إِذْ تَأْتَوْا أَتَقْوَا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [إل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَاسْتَمْتُمْ مُدْرِيكًا» [التوبة: ٢٥] يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس عن كثرة العدد ولا بلبس اللامة والعدد، وإنما النصر من عند تعالى كما قال تعالى: «كَمْ يَنْ فَتَنُوا قَلِيلًا وَعَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةً إِذْ ذُنِ

(١) صحيح: الترمذي (٣٥٧٧).

(٢) مسلم (١٧٦٣)، الترمذي (٣٠٨١)، أحمد (٢٠٨) من حديث عبد الله بن عباس عن عمر.

(٣) صحيح: أبو داود (٢٢٧٧)، النسائي في الكبرى (٣٥٠/٦)، برقم (١١٢٠٣)، الحاكم في المستدرک (٢/

٣٥٧)، برقم (٣٢٦٢)، ابن جرير (٢٠١/٩).

اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿البقرة: ٢٤٩﴾ .

ثم قال تعالى لنبية ﷺ أيضًا في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكاثته فرماهم بها وقال: «شاهت الوجوه» ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكتبهم بها لا أنت. قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه - يعني يوم بدر - فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدًا» فقال له جبريل خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين^(١).

وقال السدي: قال رسول الله ﷺ لعلى رضى الله عنه يوم بدر: «أعطني حصبًا من الأرض» فناوله حصبًا عليه تراب فرمى به في وجوه القوم فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ فِئْتًا وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ رَمِيًّا﴾^(٢) وقال أبو معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله^(٣): ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ قال: هذا يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم، وقال «شاهت الوجوه» فانهزموا^(٤)، وقد روى في هذه القصة عن عروة بن الزبير ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضًا. وقال أبو جعفر بن جرير^(٥): حدثنا أحمد بن منصور حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا عبد العزيز بن عمران حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زمة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتًا وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمتنا، غريب من هذا الوجه، وههنا قولان آخران غريان جدًا:

(أحدهما): قال ابن جرير حدثني محمد بن عوف الطائي حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان بن عمرو حدثنا عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر دعا بقوس فأتى بقوس طويلة وقال «جيثوني بقوس غيرها» فجاءوه بقوس كبداء فرمى النبي ﷺ الحصن فأقبل السهم يهوى حتى قتل

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٠٥/٩).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٠٥/٩).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٠٥/٩).

(٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٤/٦): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وإسناده حسن.

ابن أبي الحقيق وهو فى فراشه فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (١) وهذا غريب وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفيير ولعله اشتبه عليه أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله وإلا فسياق الآية فى سورة الأنفال فى قصة بدر لا محالة وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم.

(والثانى): روى ابن جرير أيضًا والحاكم فى مستدرکه (٢) بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهرى أنهما قالا: أنزلت فى رمية النبى ﷺ يوم أحد أبى بن خلف بالحربة وهو فى لأمته فخدشه فى ترقوته فجعل يتدأدأ عن فرسه مرارًا حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليم موصولاً بعذاب البرزخ المتصل بعذاب الآخرة، وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضًا جدًا ولعلمهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير فى قوله ﴿وَلِيَسِيْلَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْهُ بَلَآءٌ حَسَنًا﴾ أى ليعرف المؤمنون من نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته وهكذا فسر ذلك ابن جرير أيضًا، وفى الحديث «وكل بلاء حسن أبلانا» وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ﴾ أى سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب، وقوله ﴿ذٰلِكُمْ وَاَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كٰذِبِيْنَ﴾ هذه بشاره أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل مصغر أمرهم وأنهم وكل ما لهم فى تبار ودمار، ولله الحمد والمنة.

﴿إِنْ تَسْتَفِيْهُوْا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ حَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُوْدُوْا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِيْ عَنْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى للكفار: ﴿إِنْ تَسْتَفِيْهُوْا﴾ أى تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتكم كما قال محمد بن إسحاق وغيره عن الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة بن صمير أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة. وكان ذلك استفتاحًا منه فنزلت ﴿إِنْ تَسْتَفِيْهُوْا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية. وقال الإمام أحمد (٣) حدثنا يزيد يعنى ابن هارون أخبرنا محمد بن إسحاق حدثنى الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة. فكان المستفتح، وأخرجه النسائى (٤) فى التفسير من حديث صالح بن كيسان عن الزهرى به، وكذا رواه الحاكم فى مستدرکه (٥) من طريق الزهرى به، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد، وقال السدى كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين، فقال الله: ﴿إِنْ تَسْتَفِيْهُوْا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ يقول

(١) رواه ابن أبي حاتم فى تفسيره (٥/٨٩١١).

(٢) الحاكم (٢/٣٥٧)، برقم (٣٢٦٣).

(٣) صحيح: أحمد برقم (٢٣١٤٨).

(٤) النسائى (٦/٣٥٠)، برقم (١١٢٠١).

(٥) الحاكم فى المستدرک (٢/٣٥٧)، برقم (٣٢٦٤).

قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم ﴿وَأَذِّبُوا الْقَلْبَ عَنَّا بِحَسْبِكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْبَصِيرَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وقوله ﴿وَأَن تَنبَهُوْا﴾ أى عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى فى الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَوَدُّوْا نَعْدَ﴾ كقوله ﴿وَأَن عُدْتُمْ عَدَاً﴾ [الإسراء: ٨] معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة. وقال السدى ﴿وَأَن تَوَدُّوْا﴾ أى إلى الاستفتاح ﴿نَعْدُ﴾ أى إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه والأول أقوى ﴿وَلَن تَقِيَّ عَنكُومُ فِتْنَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أى ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿فإن الله مع المؤمنين﴾ وهم الحزب النبوى والجناب المصطفى.

ثلاثة
أرباع
الحزب
١٨

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنهُ وَأَن تَسْمَعُونَ ١٥ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٦﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ ١٧ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ١٨﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنهُ﴾ أى تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجره ﴿وَأَن تَسْمَعُونَ﴾ أى بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٦﴾ قيل: المراد المشركون واختاره ابن جرير، وقال ابن إسحاق هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بنى آدم شر الخلق والخليقة فقال ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ﴾ أى عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه ولهذا قال ﴿الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام فى قوله ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِنۡسَانِ يَتَّبِعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةَ وَنِدَاةَ صَمٌّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الآية [البقرة: ١٧١].

وقال فى الآية الأخرى ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَصَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفٰتِنٰتُ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقيل المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بنى عبد الدار من قريش روى عن ابن عباس ومجاهد واختاره ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق هم المنافقون.

قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العسل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً فقال ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أى لأنهمهم وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه «لو أسمعهم» أى أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.



﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

قال البخاري (١) ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أجبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يصلحكم . حدثنا إسحاق حدثنا روح حدثنا شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن قال : سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبي سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال كنت أصلى فمر بى النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتته فقال «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ - ثم قال - لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له . وقال معاذ : حدثنا شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن سمع حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلا من أصحاب النبي ﷺ بهذا وقال : وهي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة : ٢] هى السبع المثانى . هذا لفظه بحروفه وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقة فى أول تفسير الفاتحة . وقال مجاهد فى قوله ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال للحق ، وقال قتادة ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال هو هذا القرآن فيه النجاة والتقاء والحياة وقال السدى ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فى الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر ، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أى للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد الفهر منهم لكم .

وقوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ، قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر وبين الكافر وبين الإيمان ، رواه الحاكم فى مستدركه موقوفاً (٢) ، وقال : صحيح ولم يخرجاه ، ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً ، ولا يصح ؛ لضعف إسناده (٣) والموقوف أصح ، وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدى ، وفى رواية عن مجاهد فى قوله ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ حتى يتركه لا يعقل ، وقال السدى يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه .

وقال قتادة هو كقوله ﴿وَمَنْ أَرَادَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْلِ الْوَيْدِ﴾ [ق : ١٦] وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية ، وقال الإمام أحمد (٤) : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» . قال : فقلنا يا رسول الله أمتنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا؟ قال : «نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها» . وهكذا رواه الترمذى (٥) فى كتاب القدر من جامعه عن هناد بن السرى عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير عن الأعمش ، واسمه سليمان بن مهران عن أبي سفيان واسمه طلحة بن نافع عن أنس ، ثم قال : حسن . وهكذا روى عن غير واحد عن الأعمش ، ورواه بعضهم عنه عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ وحديث أبي سفيان عن أنس أصح .

(١) البخاري (٤٦٤٧) .

(٢) صحيح : الحاكم (٣٥٨/٢) ، برقم (٣٢٦٥) . (٣) كذا قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٥١٤/١١) .

(٤) صحيح : أحمد فى المسند (١١٦٩٧) . (٥) صحيح : الترمذى (٢١٤٠) .

(حديث آخر): قال الإمام أحمد، وقال عبد بن حميد في مسنده: ^(١) حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا شعبة عن الحكم عن ابن أبي ليلى عن بلال، رضى الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعاً. وهو مع ذلك على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد ^(٢) حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بسر بن عبد الله الحضرمي أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول سمعت النواس بن سمعان الكلابي رضى الله عنه يقول سمعت النبي ﷺ يقول «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاعه» وكان يقول «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه» وهكذا رواه النسائي وابن ماجه ^(٣) من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فذكر مثله.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد ^(٤) حدثنا يونس حدثنا حماد بن زيد عن المعلبي بن زياد عن الحسن أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالت: فقلت يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فقال «إن قلب آدمي بين أصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاعه وإذا شاء أقامه».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد ^(٥) حدثنا هاشم حدثنا عبد الحميد حدثني شهر سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول «اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالت فقلت يا رسول الله أو إن القلوب لتقلب؟ قال «نعم ما خلق الله من بشر من بنى آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاعه فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لذه رحمة إنه هو الوهاب» قالت فقلت: يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى قولي: اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتني».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد ^(٦) حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة أخبرني أبو هانيء أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبَيْلِيَّ أنه سمع عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرف كيف شاء» ثم قال رسول الله ﷺ «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك» انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري فرواه مع النسائي ^(٧) من حديث حيوة بن شريح المصري به.

(١) عبد بن حميد (١/١٤٠)، برقم (٣٥٩). (٢) صحيح: أحمد (١٧١٧٨).

(٣) صحيح: النسائي في الكبرى (٤/٤١٤)، برقم (٧٧٣٨)، ابن ماجه (١٩٩).

(٤) أحمد في مسنده (٢٤٠٨٣).

(٥) صحيح: أحمد في مسنده (٢٦٠٣٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٧٦): إسناده حسن.

(٦) صحيح: أحمد في مسنده (٦٥٣٣).

(٧) مسلم (٢٦٤٥)، النسائي في الكبرى (٤/٤١٤)، برقم (٧٧٣٩).

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٥﴾﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة أى اختباراً ومحنة يعم بها المسمى وغيره لا يخص بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما قال الإمام أحمد: ^(١) حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا شداد بن سعيد حدثنا غيلان بن جرير عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضى الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت، وقد رواه البزار ^(٢) من حديث مطرف عن الزبير وقال: لا نعرف مطرفاً روى عن الزبير غير هذا الحديث، وقد روى النسائي ^(٣) من حديث جرير بن حازم عن الحسن عن الزبير نحو هذا، وقد روى ابن جرير ^(٤) حديثى الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا مبارك بن فضالة عن الحسن قال، قال الزبير لقد خوفنا بها يعنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة وكذا رواه حميد عن الحسن عن الزبير رضى الله عنه وقال داود بن أبى هند عن الحسن فى هذه الآية قال نزلت فى على وعثمان وطلحة والزبير رضى الله عنهم، وقال سفيان الثوري عن الصلت بن دينار عن عقبه بن صهبان سمعت الزبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٥﴾﴾ وقد روى من غير وجه عن الزبير بن العوام، وقال السدى: نزلت فى أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتلوا، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يعنى أصحاب النبى ﷺ خاصة.

وقال فى رواية له عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب، وهذا تفسير حسن جداً، ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ هى أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبى حبيب، وغير واحد، وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] فأياكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن رواه ابن جرير، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة فى التحذير من الفتن ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة وأفرده بالتصنيف ومن أخص ما يذكر ههنا ما رواه الإمام أحمد ^(٥) حيث قال: حدثنا أحمد بن

(١) أحمد فى مسنده (١٤١٧). قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٧/٧): رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٢) البزار فى مسنده (٣/١٩٠)، برقم (٩٧٦). قال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٢٤): وفيه حجاج بن نصير ذكره ابن حبان فى الثقات، وقال: بخطه وبم وثقه ابن معين فى رواية، وضعفه جماعة، وبقيه رجاله رجال الصحيح.

(٣) النسائي فى الكبرى (٦/٣٥١)، برقم (١١٢٠٦).

(٤) ابن جرير فى تفسيره (٩/٢١٩).

(٥) المسند (١٧٢٦٧) قال الهيثمى فى المجمع (٧/٢٦٧): رواه أحمد من طريقين، إحداهما هذا- يعنى قوله: وعن

الحجاج أخبرنا عبد الله يعني ابن المبارك، أنبأنا سيف بن أبي سليمان سمعت عدى بن عدى الكندى يقول، حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يعني عدى بن عميرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة» فيه رجل متهم ولم يخرجوه في الكتب الستة ولا واحد منهم والله أعلم.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(١) حدثنا سليمان الهاشمي حدثنا إسماعيل يعني ابن جعفر أخبرني عمرو بن أبي عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم». ورواه^(٢) عن أبي سعيد عن إسماعيل بن جعفر وقال «أو ليبعثن الله عليكم قوماً ثم تدعونهم فلا يستجيب لكم». وقال الإمام أحمد^(٣) حدثنا عبد الله بن نمير قال حدثنا رزين حبيب الجهني حدثني أبو الرقاد قال: خرجت مع مولاى فدفعت إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتحاضن على الخير أو ليستحتنكم الله جميعاً بعذاب أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد أيضاً^(٤) حدثني يحيى بن سعيد عن زكريا حدثنا عامر رضى الله عنه قال: سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنه يخطب يقول: وأوماً بأصبعيه إلى أذنيه يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدمن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها وأصاب بعضهم أعلاها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأدوهم فقالوا لو خرقنا فى نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً، انفرد بإخراجه البخارى^(٥) دون مسلم فرواه فى الشركة والشهادات، والترمذى^(٦) فى الفتن من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش عن عامر بن شراحيل الشعبى، به.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٧) حدثنا حسين حدثنا خلف بن خليفة عن ليث عن علقمة بن مرثد عن المعرور بن سويد عن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا ظهرت المعاصى فى أمتى عمهم الله بعذاب من عنده» فقلت يا رسول الله: أما فيهم أناس صالحون؟ قال «بلى» قالت فكيف يصنع أولئك؟ قال «يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان».

عدى بن عدى حدث عن مجاهد قال: ثنا مولى لنا، والأخرى: عن عدى بن عدى حدثني مولى لنا، وهو الصواب، وكذلك رواه الطبراني، وفيه رجل لم يسم، وقال الحافظ فى الفتح (٤/١٣): أخرجه أحمد بسند حسن.

- (١) حسن: أحمد (٢٢٧٩٠)، انظر صحيح الجامع الصغير.
 (٢) حسن: أحمد (٢٢٨١٦)، من طريق أبي سعيد عن سليمان بن بلال.
 (٣) أحمد (٢٢٨٠١) قال الهيثمي فى المجمع (٢٩٧/١٠): وفيه أبو الرقاد الجهني لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.
 (٤) صحيح: أحمد (١٧٩٠٤). (٥) البخارى (٢٤٩٣)، (٢٦٨٦).
 (٦) الترمذى (٢١٧٣). (٧) صحيح: المسند (٢٦٠٥٦).

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد^(١) حدثنا حجاج بن محمد حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «ما من قوم يعملون بالمعاصي وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمهم الله بعقاب أو أصابهم العقاب» ورواه أبو داود^(٢) عن مسدد عن أبي الأحوص عن أبي إسحاق، به . وقال الإمام أحمد أيضًا :^(٣) حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسحاق يحدث عن عبيد الله بن جرير، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب»، ثم رواه أيضًا عن وكيع عن إسرائيل، وعن عبد الرزاق عن معمر وعن أسود عن شريك ويونس كلهم عن أبي إسحاق السبيعي،^(٤) به وأخرجه ابن ماجه^(٥) عن علي بن محمد عن وكيع به، وقال الإمام أحمد :^(٦) حدثنا سفیان حدثنا جامع بن أبي راشد عن منذر عن الحسن بن محمد عن امرأته عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ «إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه» فقالت : وفيهم أهل طاعة الله؟ قال : نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله» .

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكشروهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وبقراءة آية فرزقهم من الطيبات واستشكرهم، فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستضعفين مضطرين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسى ورومى، كلهم أعداء لهم لقتلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم فى الهجرة إلى المدينة فأواهم إليها وقبض لهم أهلها أووا ونصروا يوم بدر وغيره، وأسوا بأموالهم وبذلوها مهجهم فى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، قال قتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله فى قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، قال : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً وأبينه ضلالاً [حجر بين الأسدين : فارس والروم ولا والله ما فى بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه]، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردى فى النار يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلة من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به فى البلاد ووسع به فى الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر فى مزيد من الله .



(٢) صحيح : أبو داود (٤٣٣٩) .
 (٤) صحيح : المسند (١٨٧٦٨) .
 (٦) صحيح : المسند (٢٣٦١٣) .

(١) صحيح : المسند (١٨٧١٠) .
 (٣) صحيح : المسند (١٨٧٤٥) .
 (٥) حسن : ابن ماجه (٤٠٠٩) .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا
أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾

قال عبد الله بن أبي قتادة والزهرى: ^(١) أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة ليزولوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه، أى إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يدوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاه الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله: إنى كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة، فقال «يجزيك الثلث أن تصدق به» .
وقال ابن جرير: ^(٢) حدثنى الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا يونس بن الحارث الطائفى حدثنا محمد بن عبيد الله أبو عون الثقفى عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية فى قتل عثمان، رضى الله عنه ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية .

وقال ابن جرير أيضاً: ^(٣) حدثنا القاسم بن بشر بن معروف حدثنا شبابة بن سوار حدثنا محمد بن المحرم قال لقيت عطاء بن أبى رباح فحدثنى قال: حدثنى جابر بن عبد الله أن أباً سفيان خرج من مكة فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن أباً سفيان بمكان كذا وكذا، فقال النبي ﷺ لأصحابه «إن أباً سفيان فى موضع كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم فانزل الله عز وجل ﴿لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمْنَتِكُمْ﴾ الآية، هذا حديث غريب جداً، وفى سنده وسياقه نظر، وفى الصحيحين ^(٤) قصة حاطب بن أبى بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث فى إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه فإنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» .

قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمعتمدية. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿وَتَحْزَنُوا أَمْنَتِكُمْ﴾ الأمانة: الأعمال التى اتتمن الله عليها العباد، يعنى الفريضة. يقول: ﴿لَا تَحْزَنُوا﴾ لا تنقضوها. وقال فى رواية: ﴿لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، يقول بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير فى هذه الآية، أى لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه فى السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم،

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره (٢٢١/٩ - ٢٢٢). (٢) رواه ابن جرير فى تفسيره (٢٢٢/٩).

(٣) رواه ابن جرير فى تفسيره (٢٢١/٩). (٤) البخارى برقم (٣٠٠٧)، مسلم (٢٤٩٤).

السدى: الإثبات هو الحبس والوثاق، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء، وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج: قال عطاء: سمعت عبيد بن عمير يقول: لما اتتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه. قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما اتتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال «ربي» قال: نعم الرب ربك استوص به خيرًا. قال «أنا استوصى به، بل هو يستوصى بي»^(١).

وقال أبو جعفر بن جرير: ^(٢) حدثني محمد بن إسماعيل البصرى المعروف بالوساوسى، أخبرنا عبد الحميد بن أبى رواد عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن المطلب بن أبى وداعة أن أبى طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأمر بك قومك؟ قال «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال «ربي». قال: نعم الرب ربك فاستوص به خيرًا. قال «أنا استوصى به، بل هو يستوصى بي». قال: فنزلت ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُنْفِكُوا أَوْ يَمْلِكُوا أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية. وذكُر أبى طالب فى هذا غريب جدًا، بل منكر، لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الاتمار والمشاورة على الإثبات أو النفى أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجتروا عليه بسبب موت عمه أبى طالب الذى كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه، والدليل على صحة ما قلنا ما روى الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازى ^(٣) عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: وحدثنى الكلبي عن بإذان مولى أم هانئ عن ابن عباس أن نفرًا من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له من أنت؟ قال شيخ من أهل نجد، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيى ونصحى. قالوا: أجل، ادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا فى شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يوائبكم فى أمركم بأمره. قال: فقال قاتل منهم: أحبسوه فى وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابعة إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال: والله ما هذا لكم برأى والله ليخرجنه ربه من مجبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يشبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قال: فانظروا فى غير هذا. قال: فقال قاتل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان أمره فى غيركم. فقال الشيخ النجدى: والله ما هذا لكم برأى ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه. وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم لياتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا بابًا غير هذا. قال: فقال أبو جهل لعنه الله، والله لأشيرن عليكم برأى ما أركم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلامًا شابًا وسيطًا نهدًا، ثم يعطى كل غلام منهم سيفًا صارمًا، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها، فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقرون على حرب قريش كلها.

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره (٢٢٧/٩). (٢) منكر: ابن جرير فى تفسيره (٢٢٧/٩).

(٣) رواه ابن جرير فى تفسيره (٢٢٧/٩). عن محمد بن إسحاق.

فإنهم إذا رأوا ذلك، قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، لا رأي غيره.

قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَكْرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ وأنزل في قولهم تربصوا به رب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا رَبِّبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]. فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة للذي اجتمعوا عليه من الرأي، وعن السدي نحو هذا السياق وأنزل الله في إرادتهم إخراج قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُوا مِنْ أَرْضٍ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] وكذا روى العوفي عن ابن عباس، وروى عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك، وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه فدعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى بيرد له أخضر ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرها على رؤوسهم وأخذ الله أبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ [يس: ١-٢]، إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: روى عن عكرمة ما يؤكد هذا، وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه^(١) من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت يا أبت ومالي لا أبكي وهؤلاء الملا من قريش في الحجر يتعاقدون باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى لو قدر أروك لقموا إليك فيقتلونك وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك، فقال: «يا بنية اثني بوضوء» فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا: ها هو ذا فطاطنوا رؤوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: «شاهت الوجوه» فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ولا أعرف له علة.

وقال الإمام أحمد: (٢) حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر أخبرني عثمان الجزري، عن مقسم مولى ابن عباس أخبره ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأتيتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات على رضى الله عنه على فراش

(١) صحيح: ابن حبان (٤٣٠/١٤)، برقم (٦٥٠٢)، والحاكم (٢٦٨/١)، برقم (٥٨٣).

(٢) المسند (٣٢٤١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧/٧): فيه عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح.

رسول الله ﷺ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا علياً رد الله تعالى مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال لا أدري، فاقترضوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فعمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ﴾ أي فمكرت بهم بكيدى المتين حتى خلصتكم منهم.

﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِنَّ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١) وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لِمَا وَعَدَ اللَّهُ فَأَسْطِيزُ الْعَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ نُفُثًا مِمَّا يُضِلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته حين تنلى عليهم أنهم يقولون ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وهذا منهم قول بلا فعل وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا وإنما هذا القول منهم يفرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم، وقد قيل إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن فكان إذا قام عليه الصلاة والسلام من مجلس جلس فيه النضر فيحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول بالله أينا أحسن قصصا أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أنه تضرب رقبته صبرا بين يديه ففعل ذلك، ولله الحمد وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضى الله عنه كما قال ابن جرير: ^(١) حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال قتل النبي ﷺ يوم بدر صبرا عقبه بن أبي معيط وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله أسيرى فقال رسول الله ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله عز وجل ما يقول، فأمر رسول الله ﷺ بقتله فقال المقداد يا رسول الله أسيرى فقال رسول الله ﷺ: اللهم أغن المقداد من فضلك، فقال المقداد هذا الذي أردت، قال وفيه أنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِنَّ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١) وكذا رواه هشيم ^(٢) عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبير أنه قال المطعم بن عدى بدل طعيمة وهو غلط لأن المطعم بن عدى لم يكن حيا يوم بدر، ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذ: لو كان المطعم بن عدى حيا ثم سألتني في هؤلاء لوهبتهم له، ^(٣) يعنى الأسارى لأنه كان قد أجاز رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف، ومعنى ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو جمع

(١) صحيح: ابن جرير في تفسيره (٢٣١/٩). (٢) ابن جرير في تفسيره (٢٣١/٩).

(٣) البيهاري برقم (٣١٣٩)، أحمد برقم (٢٧٥٤٦)، عن جبير بن مطعم.

أسطورة أى كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأُولَىٰ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تَمُكُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَمِيلًا قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥-٦] أى لمن تاب إليه وأنا بانه يتقبل منه ويصفح عنه، وقوله ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَآبِ الْبَرِّ﴾ هذا من كثرة جهلهم وعنادهم وعتوهم، وشدة تكذيبهم وهذا مما عيىبوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ أَنَّ أَجَلَ مَسئَلِهِمْ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَهُمْ بِنِعْمَةٍ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ [المنكسوت: ٥٣] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا بَلَدِ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] ﴿سَأَلْنَا سَأَلُوكَ بِمَذَآبِ الْبَرِّ وَالْبَرِّ الْكَافِرِينَ لَئِنْ لَمْ دَأْبِعْ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَنَاجِزِ﴾ [المعارج: ١-٣] وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وقال هؤلاء ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَآبِ الْبَرِّ﴾ قال شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادى عن أنس بن مالك قال هو أبو جهل بن هشام قال ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَآبِ الْبَرِّ﴾ فنزلت ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [سورة] رواه البخارى ^(١) عن أحمد ومحمد بن النضر كلاهما عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبة به، وأحمد هذا هو أحمد بن النضر بن عبد الوهاب قاله الحاكم أبو أحمد والحاكم أبو عبد الله النيسابورى، والله أعلم.

وقال الأعمش عن رجل عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس فى قوله ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِمَذَآبِ الْبَرِّ﴾ قال هو النضر بن الحارث بن كلدة قال: فأنزل الله ﴿سَأَلْنَا سَأَلُوكَ بِمَذَآبِ الْبَرِّ وَالْبَرِّ الْكَافِرِينَ لَئِنْ لَمْ دَأْبِعْ﴾ [المعارج: ١-٢] وكذا قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبيرة والسدى: إنه النضر بن الحارث، زاد عطاء فقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا بَلَدِ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وقال ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال ﴿سَأَلْنَا سَأَلُوكَ بِمَذَآبِ الْبَرِّ وَالْبَرِّ الْكَافِرِينَ﴾ [المعارج: ١-٢] قال عطاء ولقد أنزل الله فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث حدثنا أبو غسان حدثنا أبو تميلة حدثنا الحسين عن ابن بريدة عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فاحسب بى وبفرسى. وقال قتادة فى قوله ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية قال: قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلها فعاد الله بعائنته ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلها وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [سورة].

قال ابن أبى حاتم ^(٢): حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود حدثنا عكرمة بن أبى عمار عن أبى زميل سماك الحنفى عن ابن عباس قال كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون لبيك اللهم لبيك، (١) البخارى برقم (٤٦٤٨). (٢) ابن أبى حاتم فى تفسيره (٩٠١٧/٥).

لبيك لا شريك لك، فيقول النبي ﷺ: «قد، قد»، ويقولون: اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال ابن عباس كان فيهم أمانان: النبي ﷺ والاستغفار. فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار.

وقال ابن جرير: (١) حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا أبو معشر عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالوا: قالت قريش بعضها لبعض محمد أكرمه الله من بيننا ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جَحَازَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْتِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ فلما أسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم. فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليُعَذِّبَ قوماً وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ثم قال ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني يصلون، يعني بهذا أهل مكة وروى عن مجاهد وعكرمة وعطية والعمري وسعيد بن جبيرة والسدي نحو ذلك. وقال الضحاك وأبو مالك ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عبد الغفار بن داود حدثنا النضر بن أبي قال: قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما دام بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم، قوله ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. وقال أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا أن النضر بن أبي حدثه هذا الحديث عن مجاهد عن ابن عباس. وروى ابن مردويه وابن جرير عن أبي موسى الأشعري نحواً من هذا. وكذا روى عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ. وقال الترمذي (٢) حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن نمير عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن عباد بن يوسف عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَّهَ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة». ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد (٣) في مسنده والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الإمام أحمد: (٤) حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا رشدين هو ابن سعد حدثني معاوية بن سعد التجيبي عن حدثه عن فضالة بن

(١) ابن جرير في تفسيره (٢٣٥/٩).

(٢) ضعيف: الترمذي (٣٠٨٢). في إسناده: إسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث وعباد بن يوسف مجهول.
(٣) حسن: المسند (٢٧٦٢٧)، الحاكم في مستدركه (٢٩٠/٤)، برقم (٧٦٧٢)، انظر: صحيح الجامع برقم (١٦٥٠).

(٤) ضعيف: المسند (٢٣٤٣٤)، في إسناده: رشيد بن سعد، وهو ضعيف الحديث.

عبيد عن النبي ﷺ أنه قال «العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله عز وجل» .

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُۥٓ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُۥٓ إِلَّا الْمُتَّفُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسرى سراتهم وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد. وقال قتادة والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا. واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَنَ مَكْرُومًا أَنْ يَبْلُغَ مَجْلَهُٓ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَرِسَالَةٌ مُّؤْمِنَةٌ لَّارْتَدُّوا عَنْهَا لَقَدْ لَعَنَّاهُمْ فَذَرَوْنَ غُرْفَتَآ إِلَىٰ ذُرِّيَّتِهِنَّ فَأَتَتُنَّ الْفَكَّارَ فَتَبَوَّأْنَ مِنْهُ خِيَارًا مِنْ أَمْتِهِمْ لِيَجْزِيَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

قال ابن جرير: ^(١) حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر بن أبي المغيرة عن ابن أزيى قال: كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِعَذَابُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾، قال: وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها ﴿يَسْتَفْتِرُونَ﴾، يعني بمكة، فلما خرجوا أنزل الله ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُۥٓ﴾، قال: فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم. وروى عن ابن عباس وأبي مالك والضحاك وغير واحد نحو هذا، وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم. قال ابن جرير: ^(٢) حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة والحسن البصرى قالا: قال في الأنفال ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِعَذَابُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فنسختها الآية التي تليها ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ - إلى قوله - ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فقوتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن حديث أبي نميلة يحيى بن واضح.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] ثم استثنى أهل الشرك فقال ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ - وقوله - ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُۥٓ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُۥٓ إِلَّا الْمُتَّفُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أى وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أى الذى بمكة يصدون المؤمنين الذين هم أهلهم عن الصلاة عنده والطواف به، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُۥٓ إِنَّ

(٢) ابن جرير في تفسيره (٩/٢٣٨).

(١) ابن جرير في تفسيره (٩/٢٣٤).

أُولَئِكَ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴿١٧﴾ أى هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه كما قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَسَمَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [النوبة: ١٧-١٨] ، وقال تعالى : ﴿وَصَدَّقْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَمُكْفَرًا بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧] .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية : حدثنا سليمان بن أحمد هو الطبرانى ، حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصرى ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا نوح بن أبى مريم عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ من ألك ؟ قال : «كل تقى» وتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ (١) .

وقال الحاكم فى مستدرکه : (٢) حدثنا أبو بكر الشافعى ، حدثنا إسحاق بن الحسن ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا سفيان عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه عن أبيه عن جده قال : جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال : «هل فيكم من غيركم؟» فقالوا فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال : «حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا إن أوليائى منكم المتقون» ثم قال : هذا صحيح ولم يخرجاه ، وقال عروة والسدى ومحمد بن إسحاق فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال هم محمد ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم .

وقال مجاهد : هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا ، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام ، وما كانوا يعاملونه به ، فقال : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاةً وَتَصَدِيَةً﴾ ، قال عبد الله بن عمرو وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردى ومحمد بن كعب القرظى وحجر بن عيسى ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الصغير ، وزاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم فى أفواههم ، وقال السدى : المكاء الصغير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ : التصفيق . قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد ، حدثنا يونس بن محمد المؤدب ، حدثنا يعقوب يعنى ابن عبد الله الأشعري ، حدثنا جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاةً وَتَصَدِيَةً﴾ ، قال : كانت قريش تطوف بالكعبة عراة تصفر وتصفق ، والمكاء الصغير وإنما شبهوا بصغير الطير وتصديده : التصفيق ، وهكذا روى على بن أبى طلحة ، والوعوفى عن ابن عباس ، وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد ومحمد بن كعب وأبى سلمة بن عبد الرحمن والضحاك وقتادة وعطية العوفى وحجر بن عيسى وابن أبى رزق بن جرير .

وقال ابن جرير : (٣) حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عامر حدثنا قرة عن عطية عن ابن عمر فى وقوله : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاةً وَتَصَدِيَةً﴾ قال : المكاء : التصفير ، والتصديده : التصفيق ،

(١) ضعيف : أخرجه الطبراني فى الأوسط (٣/٣٣٨) ، برقم (٣٣٣٢) ، وفى الصغير (١/١٩٩) ، برقم (٣١٨) ، قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٦٩) : رواه الطبراني فى الصغير والأوسط ، وفيه : نوح بن أبى مريم وهو ضعيف .
(٢) صحيح : الحاكم (٢/٣٥٨) ، برقم (٣٢٦٦) . (٣) ابن جرير فى تفسيره (٩/٢٤١) .

قال قرة: وحكى لنا عطية فعل ابن عمر فصفر ابن عمر وأمال خده وصفق بيديه، وعن ابن عمر أيضًا أنه قال: إنهم كانوا يضعون حدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه.

وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال، قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلواته، وقال الزهري يستهزئون بالمؤمنين، وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد ﴿وَتَصَدِيكَةٌ﴾ قال صددهم الناس عن سبيل الله عز وجل. قوله ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي، واختاره ابن جرير ولم يحك غيره، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْزَعُنَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٦٧﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جِمَاعًا يَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰشِرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ قالوا لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع قُلُوبُهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بغيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب أبائهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا يا معشر قريش إن محمدًا قد وترككم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأرًا بمن أصيب منا ففعلوا، قال ففهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾، وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عتيبة وقاتة والسدي وابن أبرد أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ.

وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصًا فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي ندامة حيث لم تجد شيئًا لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله متم نوره ولو كره الكافرون وناصر دينه ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدى والعذاب السرمدي، ولهذا قال: ﴿فَسَيُفْزَعُنَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر، وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في

الآخرة كقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ مُشْرِكُوا وَرَبُّكُمُ الرَّحْمَنُ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ لَكُمْ وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَهْبِطَ بِكُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالَّذِينَ آمَنُوا سَيُجْزَوْنَ أَجْرًا كَثِيرًا بِمَا هُمْ قَانِعُونَ﴾ [الروم: ١٤].

وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَأَمْتَنُوا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ﴾ [يس: ٥٩] ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله أي إنما أقدراهم على ذلك ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالانكسار عن ذلك كقوله: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ بِيَوْمِ تَلْقَى الْجَمْعَانَ فَيُذِينَ اللَّهُ وَيَلْعَلِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَلْعَلِمُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا فَتُقْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأْتَمَعْتُمْ﴾ الآية [إم عمران: ١٦٦-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِقَكُمْ عَلَى الطَّيِّبِ﴾ الآية [إم عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِيكُمْ وَيَحْمِلُوا الصَّالِحِينَ﴾ [إم عمران: ١٤٢] ونظيرها في براءة أيضا فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدراهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَجْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَصَلِّهُمُ رِجَالًا﴾ [النور: ٤٣] أي متراكما متراكبا ﴿فَيَجْعَلُهُمْ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ وَقَلِيلٌ مِمَّنْ يَنْتَهُوا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ فَإِنَّ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْمُ الْيَتِيمَ وَيَقُمُ التَّصَدِيقَ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم كما جاء في الصحيح^(١) من حديث أبي وائل عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخرة» وفي الصحيح^(٢) أيضا أن رسول الله ﷺ قال: الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها» وقوله ﴿وَإِنْ يُعُودُوا﴾ أي يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعالجهم بالعذاب والمعقوبة.

قال مجاهد في قوله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي في قریش يوم بدر وغيرها من الأمم، وقال السدي ومحمد بن إسحاق أي يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِمَّنْ يَنْتَهُوا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ قال البخاري^(٣) حدثنا

(١) البخاري برقم (٦٩٢١)، مسلم (١٢٠). (٢) أخرجه مسلم (١٢١)، بلفظ: «الإسلام يهدم ما كان قبله...» (٣) البخاري (٤٦٥٠).

الحسن ابن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى حدثنا حيوة بن شريح عن بكر بن عمرو عن بكير عن نافع عن ابن عمر أن رجلا جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿وَلَيْنَ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [المحجرات: ٩] الآية فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أعير بهذه الآية، ولا أقاتل أحب إلى من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٩٣] قال: فإن الله تعالى يقول ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلا وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال فما قولكم في علي وعثمان؟ قال ابن عمر أما قولي في علي وعثمان: أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون .

وحدثنا أحمد بن يونس ^(١) حدثنا زهير حدثنا بيان أن ابن وبرة حدثه قال حدثني سعيد بن جبير قال: خرج علينا أو إلينا ابن عمر رضی الله عنهما فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك. هذا كله سياق البخاري رحمه الله تعالى، وقال عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنه أتاه رجلا في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال يمنعني أن الله حرم عليّ دم أخي المسلم. قالوا أو لم يقل الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟ قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله .

وكذا رواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أيوب بن عبد الله اللخمي، قال كنت عند عبد الله بن عمر رضی الله عنهما، فأتاه رجل فقال: إن الله يقول ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله، رواهما ابن مردويه .

وقال أبو حنيفة: عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه، قال: قال ذو البطين، يعني أسامة بن زيد: لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبداً. قال: فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبداً، فقال رجل ألم يقل الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟ فقال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه .

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، يعني لا يكون شرك . وكذا قال أبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم .

وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير، وغيره من علمائنا، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

وقوله ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس في هذه الآية، قال يخلص التوحيد لله.

وقال الحسن وقتادة وابن جريج ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أن يقال لا إله إلا الله، وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويخلص ما دونه من الأنداد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، لا يكون مع دينكم كفر، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل»، وفي الصحيحين^(٢) عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله عز وجل؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله عز وجل».

وقوله ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ أى بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفروا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿فَإِنِ اللَّهُ يَمَّا يَمْتَلُونَ بَصِيرًا﴾، كقوله ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية [التوبة: ٥]، وفى الآية الأخرى ﴿فَاخْرُجْكُمْ فِي الَّذِينَ﴾ [التوبة: ١١]، وقال ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] وفى الصحيح: ^(٣) أن رسول الله ﷺ قال لأسامة، لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال لا إله إلا الله فضربه قتلته، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ فقال يا رسول الله، إنما قالها تعوداً، قال «هلا شققت عن قلبه؟» وجعل يقول ويكرر عليه، «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم، وقوله ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَأَلْهَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يُحِمُّ الْكُفْرَ وَيَمُمُّ النَّصِيْرَ ﴿٥٠﴾﴾، أى وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم، وسيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى ونعم النصير.

وقال محمد بن جرير^(٤) حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبي حدثنا أبان العطار حدثنا هشام بن عروة عن عروة أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة: سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فإنك كتبت إلى تسألنى، عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فنعمة النبى ونعم السيد ونعم العشيرة، فجزاه الله خيراً، وعرفنا وجهه فى الجنة، وأحياناً على ملته وأمانتنا عليها وبعثنا عليها، وأنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذى أنزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكانوا يسمعون له، حتى إذا ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطوائف من قريش لهم أموال، أنكروا ذلك عليه ناس واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال وأخروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله

(١) البخاري برقم (٢٥)، مسلم برقم (٢٢). عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) البخاري برقم (٢٨١٠)، مسلم برقم (١٩٠٤). (٣) البخاري برقم (٤٢٦٩)، مسلم (٩٦).

(٤) ابن جرير في تفسيره (٢٤٩/٩).

أن يمكث، ثم اتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن وعصم الله من شاء منهم، فلما فعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح، يقال له النجاشي، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يشنى عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها، وكانت مسكنًا لتجارهم يجدون فيها رفاغًا من الرزق، وأمنًا ومتجرًا حسنًا، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف عليهم الفتنة، ومكث هو فلم يبرح، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم، ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولى هي التي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخالفتها، وفرارًا مما كانوا فيه من الفتنة والزلزال فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم تحدث باسترخائهم عنهم، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عمن كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون، فرجعوا إلى مكة وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون، وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا الإسلام بالمدينة وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة، فلما رأت قريش ذلك، تأمرت على أن يفتنوهم ويشتدوا، فأخذوهم فحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، فكانت الفتنة الأخيرة، فكانت فتنتان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبي ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة: لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة، ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيبًا، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهدهم، على أنا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا فإننا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم قريش، عند ذلك، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه، أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله عز وجل فيها ﴿وَقَالُوا هُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ﴾، ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، عن عروة بن الزبير، أنه كتب إلى الوليد يعني ابن عبد الملك بن مروان بهذا، فذكر مثله، وهذا صحيح إلى عروة رحمه الله.

الجزء

١٠

الحزب

١٩

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُمُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصًا لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة من إحلال المغنم. والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار، بإيجاب الخيل والركاب، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها، ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة، والغنيمة على الفيء أيضًا، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر

﴿مَا آتَاهُ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ الآية [الحشر: ٧]، قال فنسخت آية الأنفال تلك، وجعلت الغنائم أربعة أخماسها للمجاهدين، وخمسا منها لهؤلاء المذكورين، وهذا الذي قاله بعيد، لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة، أن بني النضير بعد بدر، وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفداء والغنيمة، يقول تلك نزلت في أموال الفداء، وهذه في الغنائم، ومن يجعل أمر الغنائم والفداء راجعا إلى رأى الإمام، يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس، إذا رآه الإمام والله أعلم. فقله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقوله ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَالرَّسُولِ﴾ اختلف المفسرون ههنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة. قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع عن أبي العالية الرياحي، قال: كان رسول الله ﷺ، يؤتى بالغنيمة فيخمسها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة وهو سهم الله، ثم يقسم ما بقى على خمسة أسهم فيكون سهم للرسول، وسهم لذوى القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل^(١).

وقال آخرون: ذكر الله ههنا افتتاح كلام للتبرك، وسهم لرسوله عليه السلام، قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما، كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس فى خمسة، ثم قرأ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَالرَّسُولِ﴾ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ﴾ مفتاح كلام ﴿يَوْمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً، وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمد ابن الحنفية، والحسن البصرى والشعبي وعطاء بن أبى رباح، وعبد الله بن بريدة وقتادة ومغيرة وغير واحد، أن سهم الله ورسوله واحد. ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي،^(٢) بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين، قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادى القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت يا رسول الله، ما تقول فى الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش» قلت فما أحدأولى به من أحد؟ قال: «لا ولا السهم تستخرجه من جييك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

وقال ابن جرير:^(٣) حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان عن الحسن، قال: أوصى أبو بكر بالخمس من ماله، وقال ألا أرضى من مالى بما رضى الله لنفسه، ثم اختلف قاتلو هذا القول، فروى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تخمس على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس، فربيع لله وللرسول ﷺ والذي

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠، ٣، ٤).

(٢) صحيح: البيهقي في السنن الكبرى (٦/٣٣٦)، برقم (١٢٧١٠).

(٣) ابن جرير في تفسيره (٣/١٠).

القريبى - يعني قرابة النبي ﷺ - فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً، والرابع الثانى لليتامى، والرابع الثالث للمساكين، والرابع الرابع لابن السبيل. وقال ابن أبى حاتم: ثنا أبى ثنا أبو معمر المنقرى، ثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة فى قوله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، الذى لله فلنبيه، والذى للرسول لأزواجه.

وقال عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح، قال: خمس الله والرسول واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء، يعنى النبي ﷺ، وهذا أعم وأشمل، وهو أن الرسول ﷺ يتصرف فى الخمس الذى جعله الله بما شاء، ويرده فى أمته كيف شاء، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد^(١) حيث قال: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مریم، عن أبى سلام الأعرج، عن المقدم بن معد يكرب الكندى، أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبى الدرداء والحارث بن معاوية الكندى رضى الله عنهم، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأحماس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنمليه، فقال: «إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا فإن الغلول عار ونار على أصحابه فى الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس فى الله القريب والبعيد، ولا تبالوا فى الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله فى السفر والحضر، وجاهدوا فى سبيل الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، ينجى الله به من الهم والغم»، هذا حديث حسن عظيم، ولم أره فى شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائى،^(٢) من حديث عمرو بن شعيب، عن أبیه عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ نحوه فى قصة الخمس والنهى عن الغلول. وعن عمرو بن عبسة، أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير، ثم قال: «ولا يحل لى من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم» رواه أبو داود والنسائى،^(٣) وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبى، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد والترمذى^(٤) وحسنه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد، وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كانت صفية من الصفى، رواه أبو داود فى سننه.^(٥) وروى أيضاً بإسناده^(٦) والنسائى أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها «من محمد رسول الله إلى بنى زهير بن أقيش إنكم إن شهدتم أن لا

(١) حسن: أحمد (٢٢١٩١)، انظر: السلسلة الصحيحة رقم (١٩٧٢).

(٢) حسن: أحمد (٦٩٩٧)، أبو داود (٢٦٩٤)، النسائى (٣٦٨٨) (٤١٣٩).

(٣) صحيح: أبو داود (٢٧٥٥)، انظر: صحيح الجامع (٧٦٦١).

(٤) صحيح: أحمد (٢٤٤١)، الترمذى (١٥٦١). (٥) صحيح: أبو داود (٢٩٩٤).

(٦) أبو داود (٢٩٩٩)، أحمد (٢٠٢١٥) ولم أجده عند النسائى.

إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقمتم الصلاة، وأتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ، وسهم الصفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله، فقلنا من كتب هذا؟ فقال رسول الله ﷺ، فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته، ولهذا جعل ذلك كثيرين من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه، وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفسء، وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال. فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس، ماذا يصنع به من بعده؟، فقال قائلون يكون لمن يلي الأمر من بعده، روى هذا عن أبي بكر وعلى وقتادة وجماعة. وجاء فيه حديث مرفوع، وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين.

وقاله آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، اختاره ابن جرير، وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوى القربى، مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق، وقيل إن الخمس جميعه لذوى القربى، كما رواه ابن جرير، ^(١) حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المنهال بن عمرو، سألت عبد الله بن محمد بن علي، وعلي بن الحسين عن الخمس، فقالا: هو لنا، فقلت لعلي: فإن الله يقول ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالرِّسَالِ﴾ فقالا: يتامانا ومساكيننا، وقال سفيان الثوري وأبو نعيم وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم، سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية رحمه الله تعالى، عن قول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لَهُ حُكْمٌ وَرَسُولٌ﴾ فقال: هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة، ثم اختلف الناس في هذين السهمين، بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليماً للخليفة من بعده، وقال قائلون لقرباة النبي ﷺ وقال قائلون: سهم القرابة لقرباة الخليفة، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

قال الأعمش عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه، وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله، وأما سهم ذوى القربى، فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ، وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم، فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابنوهم ومالوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم، لشدة قربهم، ولهذا يقول في أثناء قصيدته:

جزى الله عتا عبد شمس ونوفلا
بميزان قسط لا يخيس شعيرة
عقوبة شر عاجل غير آجل
له شاهد من نفسه غير عائل

(١) ابن جرير في تفسيره (٨/١٠).

لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم
بنى خلف قيضاً بنا والعياطل
وآل قصى فى الخطوب الأوائل

وقال جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل: مشيت أنا وعثمان بن عفان، يعنى ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله أعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» رواه مسلم. ^(١) وفى بعض روايات هذا الحديث، «إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام» ^(٢)، وهذا قول جمهور العلماء، إنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قال ابن جرير وقال آخرون: هم بنو هاشم، ثم روى عن خصيف عن مجاهد، قال: علم الله أن فى بنى هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وفى رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة، ثم روى عن على بن الحسين نحو ذلك، قال ابن جرير وقال آخرون: بل هم قريش كلها، حدثنى يونس بن عبد الأعلى، حدثنى عبد الله بن نافع، عن أبى معشر، عن سعيد المقبرى، قال: كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس يسأله عن ذوى القربى، فكتب إليه ابن عباس، كنا نقول: إنا هم، فأبى علينا ذلك قومنا، وقالوا قريش كلها ذو قربى وهذا الحديث صحيح، رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ^(٣) من حديث سعيد المقبرى، عن يزيد بن هرمز أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوى القربى، فذكره إلى قوله: فأبى ذلك علينا قومنا، والزيادة من أفراد أبى معشر نجيج بن عبد الرحمن المدنى، وفيه ضعف، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا إبراهيم بن مهدى المصيصى، حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غسلة الأيدي، لأن لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم» ^(٤)، هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين: يأتى بمناكير، والله أعلم. وقوله «وَأَلَيْتَنِي» أى أيتام المسلمين، واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين، والمساكين هم المحايير الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم، «وَأَبْنِ السَّبِيلِ» هو المسافر أو المرید للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك، وسيأتى تفسير ذلك فى آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقوله «إِنْ كُنْتُمْ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَٰنَا» أى امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس فى الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وما أنزل على رسوله، ولهذا جاء فى الصحيحين ^(٥) من حديث عبد الله بن عباس فى حديث وفد عبد القيس، أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وأمركم بأربع، وأنهاكم

(١) البخاري برقم (٣١٤٠)، أبو داود (٢٩٧٨).

تنبيه: ولم نقف عليه عند مسلم.

(٢) النسائي (٤١٣٧).

(٣) مسلم برقم (١٨١٢)، أبو داود برقم (٢٩٨٢)، الترمذى برقم (١٥٥٦)، النسائي (٤١٣٣).

(٤) أخرجه الطبراني فى الكبير (٢١٧/١١)، برقم (١١٥٤٣)، من طريق حنش عن عكرمة مطولاً.

(٥) البخاري برقم (٥٣)، ومسلم برقم (١٧).

عن أربع . أمركم بالإيمان بالله» ثم قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم» ، الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بوب البخارى على ذلك فى كتاب الإيمان من صحيحه، فقال: (باب أداء الخمس من الإيمان) ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه فى شرح البخارى، ^(١) ولله الحمد والمنة، وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أى فى القسمة، وقوله ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّخَذَ الْأَلَمَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه، بما فرق به بين الحق والباطل بيدر، ويسمى الفرقان، لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه، قال على بن أبى طلحة والعمري عن ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل، رواه الحاكم، وكذا قال مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقادة ومقاتل بن حيان وغير واحد أنه يوم بدر، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير فى قوله ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك، وقد روى الحاكم ^(٢) فى مستدركه من حديث الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن ابن مسعود، قال فى ليلة القدر: تحروها لإحدى عشرة بيقين، فإن فى صبيحتها يوم بدر، وقال على شرطهما، وروى مثله، عن عبد الله بن الزبير أيضاً، من حديث جعفر بن برقان، عن رجل عنه .

وقال ابن جرير: ^(٣) حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، عن ابن عون عن محمد بن عبد الله الثقفى، عن أبى عبد الرحمن السلمى، قال: قال الحسن بن على: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان، إسناد جيد قوى، ورواه ابن مردويه، عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب عن على قال: كانت ليلة الفرقان، ليلة التقى الجمعان، فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازى والسير، وقال يزيد بن أبى حبيب إمام أهل الديار المصرية فى زمانه: كان يوم بدر يوم الاثنين، ولم يتابع على هذا، وقول الجمهور مقدم عليه، والله أعلم .

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَوِّهِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدَوِّهِ الْقُصُوفِ وَالرَّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الِيعَادِ وَلَكِنْ لَقَضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنَّا بَيْنَهُ وَيُخَيِّنَ مَن حَىٰ عَنَّا بَيْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَوِّهِ الدُّنْيَا﴾ أى إذ أنتم بزول بعدوة الوادى الدنيا

(١) انظر فتح الباري (١/١٢٩-١٣٥).

(٢) صحيح: الحاكم (٣/٢٣)، برقم (٤٣٠٠). (٣) ابن جرير فى تفسيره (١٠/٩).

القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُمْ﴾ أى المشركون نزول ﴿بِالْمُدَوِّ الْعَقُورِ﴾ أى البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة، ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أى العير الذى فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أى مما يلى سيف البحر، ﴿وَأَوَّ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أى أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَا تَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيَادِ﴾، قال محمد بن إسحاق: وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، فى هذه الآية، قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى ليقضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، من غير ملاء منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه، وفى حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون، يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد^(١).

وقال ابن جرير: ^(٢) حدثنى يعقوب حدثنى ابن عليه، عن ابن عون عن صمير بن إسحاق، قال: أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة، ونهد الناس بعضهم لبعض، وقال محمد بن إسحاق فى السيرة: ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك، حتى إذا كان قريباً من الصفراء، بعث بسبس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء الجهنيين، يلتمسان الخبر عن أبى سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بدرًا، فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء، فاستقيا فى شن لهما من الماء، فسمعا جاريتين تختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها اقضيني حقي، وتقول الأخرى إنما تأتى العير غداً أو بعد غد فأقضيك حقك، فخلص بينهما مجدى بن عمرو، وقال صدقت، فسمع بذلك بسبس وعدى، فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه الخبر، وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر، فتقدم أمام عيره، وقال لمجدى بن عمرو هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره؟ فقال: لا والله، إلا أنى قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا فى شن لهما ثم انطلقا، فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما ففته فإذا فيه النوى، فقال هذه والله علائف يثرب، ثم رجع سريعاً فغضب وجه عيره فانطلق بها فسأحل، حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتى بدرًا - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثاً فنطعم بها الطعام، ونحمر بها الجزر، ونسقى بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً.

فقال الأحنس بن شريق: يا معشر بنى زهرة، إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا فأطاعوه فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها، ولا بنو عدى، قال محمد بن إسحاق: وحدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر، على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام فى نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلى فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم

(٢) ابن جرير فى تفسيره (١٠/١١).

(١) البخاري (٣٩٥١).

خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أزلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم، وقال «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش» قالا هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكتيب: العققل، فقال لهما رسول الله ﷺ «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدتهم؟» قالا ما ندرى. قال «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوما تسعا ويوما عشرا، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وبنيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لما التقى الناس يوم بدر يا رسول الله، ألا بنى لك عريشاً تكون فيه، ونيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى، فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبا منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ويوازرونك وينصرونك. فأنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به فبنى له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ما معهما غيرهما. قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العققل، وهو الكتيب، الذي جاءوا منه إلى الوادي، فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم أحنهم الغداة» وقوله: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّٰ عَنْ بَيِّنَةٍ».

قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد. ويسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير معاد، لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة، ولا شبهة، فحيثذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه، على بصيرة من أمره، إنه مبطل لقيام الحجة عليه، «وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّٰ عَنْ بَيِّنَةٍ» أي يؤمن من آمن «عَنْ بَيِّنَةٍ» أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَىٰ بِهِ فِي النَّاسِ» [الأنعام: ١٢٢] وقالت عائشة في قصة الإفك: «فِي هَلِكٍ مِنْ هَلِكٍ، أَي قَالَ فِيهَا مَا قَالَ مِنَ الْكُذْبِ وَالْبُهْتَانِ وَالْإِفْكِ. وَقَوْلُهُ: «وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ» أَي لَدَعَائِكُمْ وَتَضْرَعِكُمْ وَاسْتِغْنَائِكُمْ بِهِ، «عَلِيمٌ» أَي بِكُمْ، وَأَنْكُمْ تَسْتَحِقُّونَ النَّصْرَ عَلَىٰ أَعْدَائِكُمُ الْكُفْرَةَ الْمَعَانِدِينَ.



﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَّلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَّفَشَيْتُمْ وَكُنْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٩﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٠﴾﴾

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكى ابن جرير عن بعضهم، أنه رآهم بعينه التي ينام بها، وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا﴾ قال بعينك، وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه، وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشَيْتُمْ﴾ أي لجنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي من ذلك، بأن أراهم قليلاً ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [إفانر: ١٩] وقوله: ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأى العين، فيجرتهم عليهم ويطمعهم فيهم.

قال أبو إسحاق السبيعي: عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وقوله: ﴿وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾.

قال ابن أبي حاتم: ^(١) حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الخريز عن عكرمة ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾، قال: حضض بعضهم على بعض، إسناد صحيح، وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليلقى بينهم الحرب للنعمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتِي الَّذِينَ فُتِنُوا فَقَدْ أَتَيْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجْنَا كَاذِبِي يَدِيهِمْ فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي هَاتَيْنِ الْآيَتِينَ، فَإِنْ كَلَّا مِنْهَا حَقٌّ وَصَدَقٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَى.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُمْ فَفُتِنُوا فَآتَيْنَاهُمْ وَأَذَكُرُوا اللَّهُ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا فَلْيَسْلُوا وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُمْ فَفُتِنُوا فَآتَيْنَاهُمْ﴾ ثبت في الصحيحين ^(٢) عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال:

(١) ابن أبي حاتم في تفسيره (٩١٢٨/٥). (٢) البخاري برقم (٢٩٣٣)، مسلم (١٧٤٢).

«يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قام النبي ﷺ، وقال: «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

وقال عبد الرزاق: ^(١) عن سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فإن أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: ^(٢) حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد عن رجل عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ مرفوعاً، قال: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة» وفي الحديث الآخر المرفوع، ^(٣) يقول الله تعالى: «إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه» أى لا يشغله ذلك الحال، عن ذكرى ودعائى واستعائى.

وقال سعيد بن أبي عروبة: عن قتادة فى هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الغرب بالسيوف، وقال ابن أبي حاتم: ^(٤) حدثنا أبى حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء، قال: وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم، وقال أيضاً: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى عبد الله بن عياش عن يزيد بن قوذ عن كعب الأخبار، قال ما من شىء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكَ فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال الشاعر:

ذكرتك والخطيئ يخطر بيننا وقد نهلت فينا المثقفة السمر

وقال عترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى ويض الهند تقطر من دمي

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله فى تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله فى حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم، ﴿وَتَذَهَبَ بِسَبْحِكُمْ﴾ أى قوتكم وحدثكم، وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وقد كان للصحابه رضى الله عنهم فى باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم،

(١) عبد الرزاق فى مصنفه (٥/٢٥٠)، برقم (٩٥١٨).

(٢) ضعيف: الطبراني فى الكبير (٥/٢١٣)، برقم (٥١٣٠)، انظر ضعيف الجامع رقم (١٧٠٣).

(٣) ضعيف: الترمذي (٣٥٨٠) من حديث عمارة بن زعكرة به. قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ليس إسناده بالقوى. وانظر ضعيف الجامع (١٧٥٠).

(٤) ابن أبي حاتم فى تفسيره (٥/٩١٣٣).

فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش، وأصناف السودان والقطب وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرة منتهى كبره وهاب.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقًا وَالنَّاسِ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَمَعُمُونَ مُحِيطٌ ﴿٧٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم، ﴿بَطَرًا﴾ أى دفعاً للحق، ﴿وَرِيقًا﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل: لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يوماً أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَمَعُمُونَ مُحِيطٌ﴾ أى عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقًا وَالنَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدخوف، فانزل الله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيقًا وَالنَّاسِ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَمَعُمُونَ مُحِيطٌ ﴿٧٧﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴿٧٨﴾﴾ الآية، حسن لهم - لعنة الله - ما جاءوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بنى بكر، فقال: إني جار لكم، وذلك أنه تبدي لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، سيد بنى مدلج كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْتِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر، سار إبليس برأيه وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جار لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيت، في صورة رجل من بنى مدلج، في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم

اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقه أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّى بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّى أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وذلك حين رأى الملائكة، وقال محمد بن إسحاق: حدثنى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس، أن إبليس خرج مع قريش فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فلما حضر القتال ورأى الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾، فتشبت به الحارث بن هشام، فخر فى وجهه فخر صعباً، فقيل له: ويحك يا سراقه على هذه الحال، تخذلنا وتبرأ منا، فقال: ﴿إِنِّى بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّى أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرنى عمر بن عقبة عن شعبة مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: لما توافق الناس أغمى على رسول الله ﷺ ساعة، ثم كشف عنه فبشر الناس بجبريل فى جند من الملائكة يمينة الناس، وميكائيل فى جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل فى جند آخر ألف، وإبليس قد تصور فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، فلما أبصر عدو الله الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّى أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وقال: إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون، فتشبت به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقه لها سمع من كلامه، فضرب فى صدر الحارث فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط فى البحر ورفع ثوبه، وقال يا رب موعدك الذى وعدتنى. وفى الطبرانى عن رفاعه بن رافع، قريب من هذا السياق وأبسط منه، ذكرناه فى السيرة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، قال: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثيبهم، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى، وكان من أشرف بنى كنانة، فقال أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً، قال محمد بن إسحاق: فذكر لى أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة سراقه بن مالك لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذى رآه حين نكص، الحارث بن هشام أو عمير بن وهب، فقال أين - أي - سراقه؟ أين مثل عدو الله فذهب، قال فأوردهم ثم أسلمهم، قال ونظر عدو الله إلى جنود الله قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين ف﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّى أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وهكذا روى عن السدى والضحاك والحسن البصرى ومحمد بن كعب القرظى وغيرهم رحمهم الله، وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، فقال: ﴿إِنِّى أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ﴾ وكذب عدو الله. والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك، قلت: يعنى بعبادته لمن أطاعه، قوله تعالى: ﴿كَتَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

[الحشر: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْمَلَقَ وَوَعَدَكُمْ فَأَخْلَفَكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمَّا أَنْفَسْتُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي إِيَّيْكُمْ إِنَّمَا كَفَرْتُمْ بِمَا أَتْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بنى ساعدة، قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما كف بصره، يقول: لو كنت معكم الآن بيدر ومعى بصرى لأخبرتكم بالشعب الذى خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى، فلما نزلت الملائكة ورأها إبليس، وأوحى الله إليهم أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا، وثبتتهم، أن الملائكة كانت تأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه، فيقول له أبشر فإنهم ليسوا بشيء والله معكم كروا عليهم، فلما رأى إبليس الملائكة ﴿تَكَصَّ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِيَّيْ بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِيَّيْ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وهو فى صورة سراقه، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه، ويقول لا يهولنكم خذلان سراقه إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللات والعزى، لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه فى الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً، وهذا من أبى جهل لعنه الله، كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣] وكقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] وهو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة.

وقال مالك بن أنس: عن إبراهيم بن أبى عبلة، عن طلحة بن عبيد الله بن كريض، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤي إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أذحر ولا أغيب منه في يوم عرفه، وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعتق عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر» قالوا: يا رسول الله وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة»^(١) وهذا مرسل من هذا الوجه.

وقوله: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عباس فى هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض قتل الله المسلمين فى أعين المشركين، وقلل المشركين فى أعين المسلمين، فقال المشركون: غر هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون فى ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا، أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه، قال: والله لا يعبدون الله بعد اليوم - قسوة وعتوا. وقال ابن جريج فى قوله ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر، وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا: غر هؤلاء دينهم.

وقال مجاهد فى قوله عز وجل: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال فته من قريش، قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والعمارة بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلى بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (٢٤٥)، قال ابن عبد البر فى التمهيد (١/١١٦): هذا حديث حسن فى فضل شهود ذلك الموقف المبارك، وفيه دليل على الترغيب فى الحج، ومعنى هذا الحديث محفوظ من وجوه كثيرة.

مكة، وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: غر هؤلاء دينهم حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، وكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار سواء.

وقال ابن جرير: ^(١) حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر عن الحسن في هذه الآية قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين، قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا غر هؤلاء دينهم، وقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى يعتمد على جنبه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أفعاله لا يضعها إلا فى مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٥﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ٥٦﴾

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكرًا، إذ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ويقولون لهم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، قال ابن جرير: عن مجاهد ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أستاذهم، قال: يوم بدر. قال ابن جرير: قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أديبارهم. وقال ابن أبي نجيح: عن مجاهد، فى قوله ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ يوم بدر، وقال وكيع: عن سفيان الثوري عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير عن مجاهد، وعن شعبة عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبيرة، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ قال: وأستاذهم، ولكن الله يكتفى، وكذا قال عمر مولى عفرة.

وعن الحسن البصرى قال: قال رجل يا رسول الله: إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشراك، قال: ما ذاك؟ قال: «ذاك ضرب الملائكة» رواه ابن جرير ^(٢) وهو مرسل.

وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام فى حق كل كافر، ولهذا لم يخصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وفى سورة القتال مثلها.

وتقدم فى سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ أُلْقِلِشُونَ فِي غَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] أى باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر ونهم، إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً، وذلك إذ بشرهم بالعذاب والغضب من الله، كما فى حديث البراء ^(٣) أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره فى تلك الصورة المنكرة، يقول: اخرجى أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتفرق فى بدنه فيستخرجونها من

(٢) ابن جرير فى تفسيره (١٠/٢٢٠).

(١) الطبري فى تفسيره (١٠/٢١٠).

(٣) تقدم تخريجه.

جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب، ولهذا أخبر تعالى: أن الملائكة تقول لهم: ﴿ذُرُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ أى هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة فى حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى لا يظلم أحدًا من خلقه، بل هو الحكم العدل الذى لا يجور تبارك وتعالى، وتقدس وتنزه الغنى الحميد، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح، عند مسلم رحمه الله، ^(١) من رواية أبى ذر رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ إن الله تعالى يقول «يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادى إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» ولهذا قال تعالى.

﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذبون بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا أى عادتنا وستتنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى بسبب ذنوبهم أهلكتهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبِرًا نِعْمَةً أَنْفَعَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُفْعِلُوا مَا بَأْسُنَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا مَّالَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه فى حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ١١]. وقوله: ﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنَ﴾ أى كصنعه بآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته، أهلكتهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التى أسداها إليهم، من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله فى ذلك بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ فَإِنَّمَا تَتَّقَنِمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنِ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٦١﴾﴾

أخبر تعالى: أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه، وكلما أكدوه بالإيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أى لا يخافون من الله فى شىء ارتكبه

من الآثام، ﴿وَمَا نَتَقَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أى تغلبهم وتظفر بهم فى حرب، ﴿فَشَرَّ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ أى نكل بهم، قاله ابن عباس والحسن البصرى والضحاك والسدى وعطاء الخراسانى وابن عيينة، ومعناه غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة، ﴿لَمَلَهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وقال السدى: يقول: لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿وَمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةٌ﴾ أى نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والمعهود، ﴿فَأَنْذِرْ لَهُمْ﴾ أى عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، أى أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أى تستوى أنت وهم فى ذلك، قال الراجز:

فاضرب وجوه الغدر للأعداء حتى يجيبوك إلى السواء

وعن الوليد بن مسلم أنه قال فى قوله تعالى: ﴿فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى على مهل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ أى حتى ولو فى حق الكفار لا يجيها أيضاً.

قال الإمام أحمد: ^(١) حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة، عن أبى الفيض عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير فى أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدرًا، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة رضى الله عنه، وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسى ^(٢) عن شعبة، وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان فى ^(٣) صحيحه، من طرق عن شعبة به.

وقال الترمذى: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد أيضًا: ^(٤) حدثنا محمد بن عبد الله الزبيرى، حدثنا إسرائيل، عن عطاء بن السائب، عن أبى البختري عن سلمان، يعنى الفارسى رضى الله عنه، أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعونى أَدْعُوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعُوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منكم، فهدانى الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلکم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بمون الله.



(١) صحيح: السند (١٦٥٦٧).

(٢) أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٥٧/١)، برقم (١١٥٥).

(٣) صحيح: أبو داود (٢٧٥٩)، الترمذى (١٥٨٠)، والنسائى فى الكبرى (٥/٢٢٣)، برقم (٨٧٣٢).

(٤) المسند (٢٣٢١٤)، وكذلك أخرجه الترمذى (١٥٤٨)، عن عطاء بن السائب قال الترمذى: وحديث سلمان

حديث حسن، لا نعرفه إلا من حديث عطاء، وسمعت عمداً يقول: أبو البختري لم يدرك سلمان.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنتَهُمْ لَا يَعْجِزُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أى فاتونا، فلا تقدر عليهم بل هم تحت قهر قدرتنا، وفى قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَمْسُكُونَ السِّتَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [المنكبات: ٤] أى يظنون، وقال تعالى: ﴿لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزَاتِ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَدَّعْتُمُ النَّارَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧] وقال تعالى: ﴿لَا يَعْزُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَلْبَدِ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَدَّعْتُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُكَذِّبِينَ الْإِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧] ثم أمر تعالى، بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أى مهما أمكنكم ﴿مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ .

قال الإمام أحمد: ^(١) حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شفي، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي رواه مسلم، ^(٢) عن هارون بن معروف، وأبو داود ^(٣) عن سعيد بن منصور، وابن ماجه ^(٤) عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثهم عن عبد الله بن وهب به. ولهذا الحديث طرق أخر، عن عقبة بن عامر، منها: ما رواه الترمذي ^(٥) من حديث صالح بن كيسان، عن رجل عنه، وروى الإمام أحمد وأهل السنن ^(٦) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا» .

وقال الإمام مالك ^(٧) عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيال لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذى له أجر، فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج أو روضة، فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة، كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها، فاستنت شرقاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به، كان ذلك حسنات له، فهى لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء، فهى على ذلك وزر» وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال «ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة» ﴿فَمَنْ يَمَسَّ مِنْهَا شَيْئاً دَرَّ مِنْهَا شَيْئاً دَرَّ شَرًّا يَرُّ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] رواه البخارى ^(٨) وهذا لفظه، ومسلم ^(٩) كلاهما من حديث مالك، وقال الإمام

(١) صحيح: المسند (١٦٩٧٩).

(٢) مسلم (١٩١٧).

(٣) أبو داود (٢٥١٤).

(٤) ابن ماجه (٢٨١٣).

(٥) الترمذي (٣٠٨٣).

(٦) صحيح: المسند (١٦٨٧٠)، أبو داود (٢٥١٣)، الترمذي (١٦٣٧)، النسائي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (٢٨١١).

(٧) مالك فى موطنه (٩٧٥).

(٨) البخاري (٢٣٧١)، من طريق مالك بن أنس به .

(٩) مسلم (٩٨٧)، من طريق زيد بن أسلم مطولاً.

أحمد: ^(١) حدثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الركين بن ربيع، عن القاسم بن حسان، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «الخيال ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فلعفه وروثه ويوبله - وذكر ما شاء الله - وأما فرس الشيطان، فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان، فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من الفقر» وقد ذهب أكثر العلماء، إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك، إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: ^(٢) حدثنا حجاج وهشام، قالا: حدثنا ليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شماس، أن معاوية بن حُديج، مر على أبي ذر وهو قائم عند فرس له، فسأله ما تعاني من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته، قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسى بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر، فيقول: اللهم أنت خولتني عبداً من عبادك، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده. قال: وحدثنا ^(٣) يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر، حدثني يزيد بن أبي حبيب عن سويد بن قيس، عن معاوية بن حُديج عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عري إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين: يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه - أو - أحب أهله وماله إليه»، رواه النسائي، ^(٤) عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان به.

وقال أبو القاسم الطبراني: ^(٥) حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدم الصنعاني، عن الحسن بن أبي الحسن، أنه قال لابن الحنظلية يعني سهلاً: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله، كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لا يقبضها»، والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة. وفي صحيح البخاري، ^(٦) عن عروة بن أبي الجعد البارقى، أن رسول الله ﷺ، قال: «الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغرم» وقوله: «**تَرْهَبُونَ**» أي تخوفون ﴿يَوْمَ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ﴾ أي من الكفار ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد يعني بني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور، وقد ورد حديث بمثل ذلك.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي، حدثنا أبو حيوة يعني شريح بن يزيد المقرئ، حدثنا سعيد بن سنان، عن ابن عَرَبِ، يعني يزيد بن عبد الله بن غريب، عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ كان يقول في قوله: «**وَالْآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ**» قال هم الجن، ورواه

(١) المسند (٣٦٤٧)، قال الهيثمي في المجمع (٥/٢٦١): رواه أحمد ورجاله ثقات، فإن كان القاسم بن حسان

سمعه من ابن مسعود فالحديث صحيح. (٢) أحمد في المسند (٢٠٩٣١).

(٣) صحيح: المسند (٢٠٩٨٦). (٤) صحيح: النسائي بقرم (٣٥٧٩).

(٥) صحيح: الطبراني في الكبير (٦/٩٨)، (٥٦٢٣).

(٦) البخاري (٢٨٥٠).

الطبراني^(١) عن إبراهيم بن دحيم، عن أبيه عن محمد بن شعيب عن سنان بن سعيد بن سنان، عن يزيد بن عبد الله بن عريب به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يخيل بيت فيه عتيق من الخيل»، وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه، وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون، وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَوَقِّفُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّىٰ تَقْلَمُهُمْ» [التوبة: ١٠١].

وقوله «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ» أي مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود:^(٢) «أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، كما تقدم في قوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» [البقرة: ٢٦١] وقال ابن أبي حاتم:^(٣) حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثنا أبي عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه كان يأمر أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ» فأمر بالصدقة بعدها، على كل من سأل من كل دين، وهذا أيضًا غريب.

ربع

الحزب

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِصُرُوفِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَفْتَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة، فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومناذرتك، فقاتلهم «وَإِنْ جَنَحُوا» أي مالوا «لِلسَّلَامِ» أي المسالمة والمصالحة والمهادنة، «فَاجْتَنِحْ لَهُمْ» أي فعل إليهما وأقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون، عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ، تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر. وقال عبد الله بن الإمام أحمد:^(٤) حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان يعني النميري، حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون اختلاف أو أمر فإن استطعت أن يكون السلم فافعل».

وقال مجاهد: نزلت في بنى قريظة، وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله، وقول ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة «فَنَلِّمُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية الثوية: [٢٩]، وفيه نظر أيضًا، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إن كان العدو كثيرًا فإنه يجوز

(١) ضعيف: الطبراني في الكبير (١٧/١٨٩)، برقم (٥٠٦)، قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٧): فيه جامل
 (٢) أبو داود (٢٤٩٨)، من حديث سهل بن معاذ عن أبيه ولفظه: «إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله بسبع مائة ضعف».
 (٣) ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٩١١٤).
 (٤) قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٣٤): رواه عبد الله ورجاله ثقات.

مهانتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم. وقوله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقوا ويستعدوا ﴿فَارْتَبِعْ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أى كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه مما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرِهِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل فى الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِمَ تَمَنَّاهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفى الصحيحين: ^(١) أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، فى شأن غناتم حنين، قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بنى، وعالة فأغناكم الله بنى، وكنتم متفرقين فألفكم الله بنى» كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله آمن، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا اللَّهُ أَلفَ بَيْنَهُمْ لَأَخْرَجْنَا مِنْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أى عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم فى أفعاله وأحكامه، وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: ^(٢) أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا على بن بشر الصيرفى القزوينى فى منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسين القنديلى الاسترابادى، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشroud، عن محمد بن مسلم الطائفى، عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس، عن ابن عباس، قال: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب، يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وذلك موجود فى الشعر:

إذا مَنْ ذو قربى إليك برحمه
ولكن ذى القربى الذى إن دعوته
فغشك واستغنى فليس بذى رحم
أجاب ومن يرمى العدو الذى ترمى

قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبتُ الناس ثم سبرتهم
فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً
ويلوت ما وصلوا من الأسباب
وإذا الصودة أقرب الأسباب

قال البيهقى: لا أدرى هذا موصولاً بكلام ابن عباس أو هو من قول من دونه من الرواة، وقال أبو إسحاق السبيعى عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال هم المتحابون فى الله. وفى رواية: نزلت فى المتحابين فى الله. رواه النسائى والحاكم فى مستدركه ^(٣) وقال: صحيح. وقال عبد الرزاق: أخبرنا

(١) البخارى (٤٣٣٠)، مسلم (١٠٦١). من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم.

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤٩٥/٦) برقم (٩٠٣٤).

(٣) النسائى فى الكبرى (٣٥٢/٦) برقم (١١٢١٠)، الحاكم فى المستدرک (٣٥٩/٢)، برقم (٣٢٦٩).

معمّر عن ابن طاوس عن أبيه، عن ابن عباس، قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يرححها شيء، ثم قرأ ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبَهُمْ﴾ رواه الحاكم أيضًا ^(١).

وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا التقى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله يقول ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبَهُمْ﴾ قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني ^(٢).

وقال ابن جرير: ^(٣) حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الخوزي عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد، قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال قلت لمجاهد: بمصافحة يغفر لهما؟ قال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بِتَنَّهُمْ﴾ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني، وكذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد، وقال ابن هون عن عمير بن إسحاق، قال: كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس - أو قال عن الناس - الألفة، وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ^(٤) رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعدًا أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي، أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما تحاتت الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زيد البحار.

﴿يَأْتِيهَا النَّوِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتِيهَا النَّوِيُّ حَرِيصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣٧﴾ أَلَكُنْ حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يحرص تعالى نبيه صلوات الله وسلامه عليه والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال ابن أبي حاتم ^(٥): حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان عن ابن شوذب عن الشعبي في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّوِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ قال حسبك الله، وحسب من شهد معك، قال: وروى عن عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد مثله، ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّوِيُّ حَرِيصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾

(١) الحاكم في المستدرک (٢/٣٣٠)، برقم (٣١٧٩).

(٢) ابن جرير في تفسيره (٣٦/١٠).

(٣) ابن جرير في تفسيره (٣٦/١٠).

(٤) صحيح: الطبراني (٢٥٦/٦)، برقم (٦١٥٠) قال المنذري في الترغيب (٣/٢٩١): رواه الطبراني بإسناد حسن.

(٥) ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/٩١٤٣).

أى حنهم وذمّر عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال، عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون فى عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ «نعم»، فقال: بخ بخ فقال: «ما يملكك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل، فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه^(١).

وقد روى عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الأربعون، وفى هذا نظر، لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة، وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وأمرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَأْتُوا بِلَايَةٍ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَأْتُوا بِاللَّيْلِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثنى الزبير بن الخزيت، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَأْتُوا بِلَايَةٍ﴾ شق ذلك على المسلمين، حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله ﴿يَأْتُوا بِلَايَةٍ﴾ قال خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر، بقدر ما خفف عنهم، وروى البخارى^(٢) من حديث ابن المبارك نحوه.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس فى هذه الآية، قال: كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ سَعْفًا﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين.

وروى البخارى^(٣) عن على بن عبد الله عن سفيان به نحوه، وقال محمد بن إسحاق حدثنى ابن أبى نجيع، عن عطاء عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفًا، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى، فقال ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ سَعْفًا﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدولهم، لم ينبغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم، وروى على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس نحو ذلك.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد وعطاء وعكرمة والحسن، وزيد بن أسلم وعطاء الخراسانى والضحاك نحو ذلك، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه: من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون عن نافع، عن ابن عمر رضى الله عنهما، فى قوله ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَأْتُوا بِلَايَةٍ﴾ قال نزلت فىنا أصحاب محمد ﷺ وروى الحاكم فى مستدرکه^(٤) من حديث أبى عمرو بن العلاء، عن نافع عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ سَعْفًا﴾ رفع ثم قال:

(٢) البخارى برقم (٤٦٥٣).

(١) مسلم (١٩٠١).

(٤) صحيح: الحاكم (٢/٢٦١)، برقم (٢٩٤١).

(٣) البخارى برقم (٤٦٥٢).

صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

﴿ مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ٧٧ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٧٨ ﴿
تَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ٧٩ ﴿

قال الإمام أحمد: ^(١) حدثنا علي بن عاصم، عن حميد، عن أنس رضى الله عنه، قال: استشار رسول الله ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال: للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، قال وأنزل الله عز وجل ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية. وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

وقال الأعمش: عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟».

قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر «يا رسول الله أخرجوك وكذبوك فقدمهم فاضرب أعناقهم، قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب، فأضرم الوادى عليهم نارا، ثم ألقهم فيه، قال: فقال العباس: قطعت رحمك .

قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئا، ثم قام فدخل، فقال ناس: ياخذ بقول أبى بكر، وقال ناس: ياخذ بقول عمر، وقال ناس: ياخذ بقول عبد الله بن رواحة .

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثله إبراهيم عليه السلام، قال ﴿فَمَنْ يَبْعُنْ بِمَا مَنِىْ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وإن مثلك يا أبا بكر كمثله عيسى عليه السلام، قال ﴿إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَإِنَّمَا يَعْزَابُكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا يَعْزَابُكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا يَعْزَابُكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا يَعْزَابُكُمْ﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر، كمثله موسى عليه السلام، قال ﴿رَبَّنَا أَلِمْسَ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشُدَّهُمْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْكُفْرَانَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وإن مثلك يا عمر، كمثله نوح عليه السلام، قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم [لا بفداء، أو ضربة عنق] قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء منى في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَتْ لِيُنَبِّئَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ إلى آخر الآية، رواه الإمام أحمد والترمذي من

(١) صحيح: المسند (١٣١٤٣).

حديث أبي معاوية عن الأعمش، والحاكم في مستدركه،^(١) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ نحوه.

وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري، وروى ابن مردويه أيضًا، واللفظ له والحاكم في مستدركه،^(٢) من حديث عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد عن ابن عمر، قال: لما أسر الأسارى يوم بدر، أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال وقد أوعده الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ «إني لم أنم الليلة من أجل عمى العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر أفأتهم؟ قال «نعم»، فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذ، فأخذه عمر فلما صار في يده، قال له: يا عباس أسلم فو الله لأن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر، فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿مَا كَانَتْ لِيُنِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَتْرَى حَتَّى يُنْخِزَ فِي الْأَتْرَى﴾ الآية، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال سفيان الثوري عن هشام - هو ابن حسان - عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن علي رضى الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر، فقال: خير أصحابك في الأسارى، إن شاءوا الفداء، وإن شاءوا القتل، على أن يقتل منهم مقبلاً مثلهم، قالوا: الفداء ويقتل منا، رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه^(٣) من حديث الثوري به، وهذا حديث غريب جداً، وقال ابن عون عن عبيدة عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم، واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم»^(٤) قال فكان آخر السبعين، ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة رضى الله عنه، ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلًا،^(٥) فالله أعلم، وقال محمد بن إسحاق عن ابن أبي نجيج، عن عطاء عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَتْرَى﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. قال غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أنى لا أعذب من عصانى، حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، وكذا روى ابن أبي نجيج: عن مجاهد، وقال الأعمش: سبق منه أن لا يعذب أحدًا شهد بدرًا، وروى نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير وعطاء، وقال شعبة عن أبي هاشم عن مجاهد ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ أَمْرِ سَبَقَ﴾ أى لهم بالمغفرة ونحوه،

(١) أحمد (٣٦٢٥)، والترمذي (١٧١٤)، (٣٠٨٤)، الحاكم (٢٤/٣)، برقم (٤٣٠٤).

قال الهيثمي في المجمع (٨٧/٦): فيه أبو عبيدة ولم يسمع من أبيه ولكن رجاله ثقات.

(٢) الحاكم (٣٢٩/٢).

(٣) صحيح: الترمذي (١٥٦٧)، النسائي في الكبرى (٨٦٦٢)، وابن حبان في صحيحه (١١٨/١١)، برقم

(٤٧٩٥).

(٤) صحيح: رواه الحاكم في مستدركه (١٥١/٢) برقم (٢٦١٩).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (٤٦/١٠).

عن سفيان الثوري رحمه الله، وقال على بن أبي طلحة: عن ابن عباس في قوله ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني في أم الكتاب الأول، أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿لَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية. وكذا روى العوفي عن ابن عباس، وروى مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبیر، وعطاء والحسن البصرى، وقتادة والأعمش أيضا، أن المراد ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

ويستشهد لهذا القول، بما أخرجه في الصحيحين^(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة» وقال الأعمش عن أبى صالح، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا»^(٢) ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَنْفِقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء، وقد روى الإمام أبو داود فى سننه: ^(٣) حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة عن أبى العنيس، عن أبى الشعثاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة.

وقد استمر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل بينى قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ فى تلك الجارية وابنتها، اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسرى. هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة، مقرر فى موضعه من كتب الفقه.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْزِزْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثنى العباس بن عبد الله بن مغفل عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إنى قد عرفت أن أناسا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحدا منهم - أى من بنى هاشم - فلا يقتله، ومن لقى أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها» فقال أبو حذيفة بن عتبة أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرتنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألجمته

(١) البخاري برقم (٣٣٥)، مسلم برقم (٥٢١).

(٢) صحيح: الترمذي (٣٠٨٥)، أحمد فى مسنده (٧٣٨٥).

(٣) صحيح: أبو داود (٢٦٩١).

بالسيف فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب «يا أبا حفص» - قال عمر والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص - «أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟» فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فو الله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفًا إلا أن يكفرها الله تعالى عنى بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيدًا رضى الله عنه. وبه عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوبون بالوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهرًا أول الليل فقال له أصحابه يا رسول الله ما لك لا تنام؟ وقد أسر العباس رجل من الأنصار فقال رسول الله ﷺ «سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه فأطلقوه» فسكت فنام رسول الله ﷺ. قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب وذلك أنه كان رجلا موسرًا فاقتدى نفسه بمائة أوقية ذهبًا.

وفى صحيح البخارى ^(١) من حديث موسى بن عقبة قال ابن شهاب حدثني أنس بن مالك أن رجلا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ائذن لنا فلتترك لابن أختنا عباس فداءه. قال «لا والله لا تذرّون منه درهمًا».

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة وعن الزهري عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس يا رسول الله قد كنت مسلما فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر»: قال ما ذاك عندي يا رسول الله قال: «فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها إن أصبت فى سفرى هذا، فهذا المال الذى دفنته لبنى الفضل وعبد الله وقثم» قال: والله يا رسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله إن هذا لشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى، فقال رسول الله ﷺ «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه وأنزل الله عز وجل ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلُوبًا مِّنْ أُنثَىٰ لَّيْسَ فِيَّ أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأُنثَىٰ إِنْ يَسْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٦﴾﴾ قال العباس فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدًا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل، وقد روى ابن إسحاق أيضًا عن ابن أبى نجيع عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية بنحو مما تقدم.

وقال أبو جعفر بن جرير: ^(٢) حدثنا ابن وكيع حدثنا ابن إدريس عن ابن إسحاق عن ابن أبى نجيع عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال العباس: فى نزلت ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتْرَكَ فِي الْأَرْضِ﴾ فأخبرت النبى ﷺ بإسلامى وسألته أن يحاسبنى بالعشرين الأوقية التى أخذت منى فأبى، فأبدلنى الله بها عشرين عبدًا كلهم تاجر مالى فى يده، وقال ابن إسحاق أيضًا حدثنى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رثاب قال كان العباس بن عبد المطلب يقول فى نزلت

(٢) ابن جرير فى تفسيره (٤٩/١٠).

(١) البخارى برقم (٤٠٢٦).

والله حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي ثم ذكر نحو الحديث كالذي قبله (١) .

وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس ﴿يَأْتِيهَا النَّوِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ تَبِكُ الْأَسْرَى﴾ عباس وأصحابه قال : قالوا للنبي ﷺ : أمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا . فأنزل الله ﴿إِنْ يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ إيمانًا وتصديقًا يخلف لكم خيرًا مما أخذ منكم ﴿وَتَغْفِرَ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه قال فكان العباس يقول ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وأن لي الدنيا لقد قال ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ فقد أعطاني خيرًا مما أخذ مني مائة ضعف وقال ﴿وَتَغْفِرَ لَكُمْ﴾ وأرجو أن يكون غفر لي ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية كان العباس أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب فقال العباس حين قرئت هذه الآية لقد أعطانا الله عز وجل خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا : إني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية فأتاني أربعين عبدًا وإني أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه ، وقال قتادة في تفسير هذه الآية : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفًا وقد توضع للصلاة الظهر فما أعطى يومئذ ساكنًا ولا حرم سائلًا وما صلى يومئذ حتى فرقه ، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتشى فأخذ ، فكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفًا ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد .

قال فنشرت على حصير ونودي بالصلاة . قال وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائما على المال وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا قبضًا وجاء العباس بن عبد المطلب يحثي في خميصة عليه وذهب يقوم فلم يستطع قال فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ارفع علي . قال فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه أو نابه وقال له : «أعد من المال طائفة وقم بما تطيق» قال ففعل وجعل العباس يقول وهو منطلق : أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندرى ما يصنع في الأخرى (٢) ﴿يَأْتِيهَا النَّوِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ تَبِكُ الْأَسْرَى . . .﴾ الآية ثم قال : هذا خير مما أخذ منا ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى فما زال رسول الله ﷺ ماثلا على ذلك المال حتى ما بقي منه درهم وما بعث إلى أهله بدرهم ثم أتى الصلاة فصلى .

(حديث آخر في ذلك) : قال الحافظ أبو بكر البيهقي (٣) : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله الشعيري حدثنا محمد بن عصام حدثنا حفص بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال «انثروه في المسجد» قال وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحدًا إلا أعطاه إذ جاء العباس فقال يا رسول الله أعطني فإنني فاديت نفسي ، وفاديت عقيلًا فقال له رسول الله ﷺ «خذ» فحشا في ثوبه ثم

(١) ابن جرير في تفسيره (٤٩/١٠) .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في مستدركه (٣٧٢/٣) برقم (٥٤٢٣) ، من طريق سليمان بن المغيرة به .

(٣) صحيح : في السنن الكبرى (٣٥٦/٦) ، برقم (١٢٨٠٧) .

ذهب يُقَلِّه فلم يستطع، فقال: مُر بعضهم يرفعه إليّ قال «لا» قال فارفعه أنت عليّ، قال «لا» فشر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفى عنه عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم.

وقد رواه البخاري^(١) في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم يقول: وقال إبراهيم بن طهمان ويسوقه وفي بعض السياقات أتم من هذا.

وقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا بِيَعَانِكَ﴾ أي: فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿فَأَتَاكَ مِنْهُمْ﴾ أي بالإسار يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بفعله حكيم فيه. قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين، وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا: لننصحن لك على قومنا، وفسرها السدي على العموم وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَفْزَعُوكُمْ فِي الَّذِينَ قَاتَلْتُمْ أَنْ تَصْرُوا إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبنلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء بعضهم أولياء بعض أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين إخوان فكانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري^(٢) عن ابن عباس، ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عنه، وقال به مجاهد وعكرمة والحسن وقاتدة وغيرهم: قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبي وائل عن جرير هو ابن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلاق من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة» تفرد به أحمد.

وقال المحافظ أبو يعلى: ^(٤) حدثنا شيبان حدثنا عكرمة يعني ابن إبراهيم الأزدي حدثنا عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجرون والأنصار، والطلاق من قريش

(١) البخاري برقم (٤٢١)، (٣٠٤٩)، (٣١٦٥) معلقاً.

(٢) البخاري برقم (٦٧٤٧).

(٣) حسن: المسند (١٨٧٣٠).

قال الهيثمي في المجمع (١٥/١٠): رواه أحمد والطبراني بأسانيد، وأحد أسانيد الطبراني رجاله رجال الصحيح،

وقد جوده.

(٤) أبو يعلى في مسنده (٤٤٦/٨)، برقم (٥٠٣٣)، قال الهيثمي في المجمع (١٥/١٠): رواه الطبراني وأبو يعلى والبخاري وفيه عاصم بن بهدلة، وفيه خلاف وبقية رجال البزار رجال الصحيح.

والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة» هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود .
وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار، في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوْلُونَ
مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْفُتُورِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ
هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية
[الحشر: ٨-٩] وأحسن ما قيل في قوله ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩] أى لا
يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على
الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن
عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده ^(١) : حدثنا محمد بن معمر حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا
حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة، قال: خيرنى رسول الله ﷺ
بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة، ثم قال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ
يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِمْ﴾ قرأ حمزة ولايتهم بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدلالة والدلالة
﴿مِن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا
في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال .
كما قال أحمد: ^(٢) حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن
أبيه، عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على
سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه، بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا
باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث
خصال - أو خلال - فأيتهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام، فإن
أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن
فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم، فأعلمهم
أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم
فى الفىء والغنيمه نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فادعهم إلى إعطاء الجزية .
فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم» انفرد به مسلم، ^(٣) وعنده زيادات
أخر، وقوله ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم رِيثٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ﴾، يقول تعالى وإن استنصركم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا فى قتال دىنى على عدو لهم
فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم فى الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من
الكفار، ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم رِيثٌ﴾ أى مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع

(١) البزار (٣٣٧/٧) برقم (٢٩٣٦).

(٢) مسلم (١٧٣١)، من طريق وكيع عن سفيان به .

(٣) صحيح : المسند (٢٢٤٦٩).

الذين عاهدتم، وهذا مروى عن ابن عباس رضى الله عنه .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٣٧﴾﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم في مستدركه^(١) : حدثنا محمد بن صالح بن هانىء، حدثنا أبو سعيد يحيى بن منصور الهروى، حدثنا محمد بن أبان، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبي ﷺ قال «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً - ثم قرأ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٣٧﴾﴾» ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

قلت : الحديث فى الصحيحين^(٢) من رواية أسامة بن زيد، قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» وفى المسند والسنن،^(٣) من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يتوارث أهل ملتين شتى» .

وقال الترمذى : حسن صحيح وقال أبو جعفر بن جرير :^(٤) حدثنا محمد، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن الزهري، أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل فى الإسلام، فقال : «تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان، وإنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب» وهذا مرسل من هذا الوجه .

وقد روى متصلاً من وجه آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أنا برىء من كل مسلم بين ظهرانى المشركين» ثم قال : «لا يترأى ناراهما»^(٥) .

وقال أبو داود فى آخر كتاب الجهاد :^(٦) حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرنى يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب حدثني خبيب بن سليمان عن أبيه سليمان بن سمرة عن سمرة بن جندب : أما بعد قال رسول الله ﷺ : «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» وذكر الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن هرمز عن محمد وسعيد ابني عبيد عن أبي حاتم المزنى قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض» قالوا : يا رسول الله وإن كان فيه . . . ؟ قال : «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات، أخرجه أبو داود والترمذى^(٧) من حديث حاتم بن إسماعيل به بنحوه، ثم روى من حديث عبد الحميد بن سليمان : عن ابن عجلان عن أبي وثيمة النصرى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) صحيح : الحاكم (٢/٢٦٢)، برقم (٢٩٤٤) . (٢) البخارى برقم (٦٧٦٤)، مسلم (١٦١٤) .

(٣) صحيح : المسند (٦٦٢٦)، أبو داود (٢٩١١)، النسائي فى الكبرى (٨٢/٤)، برقم (٦٣٨٣)، وابن ماجه (٢٧٣١) .

(٤) ابن جرير فى تفسيره (٥٤/١٠) .

(٥) صحيح : أبو داود (٢٦٤٥)، الترمذى (١٦٠٤)، من حديث جرير بن عبد الله به .

(٦) حسن : أبو داود (٢٧٨٧)، انظر : السلسلة الصحيحة رقم (٢٣٣٠) .

(٧) حسن : أبو داود فى مراسيله (١/١٩٢) برقم (٢٢٤)، والترمذى (١٠٨٥)، انظر إرواء الغليل رقم (١٨٦٨) .

«إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» (١).
ومعنى قوله «إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ» أى إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر مالهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينقضى ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه.
ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، كما قال ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية وقال ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية [الحشر: ١٠].

وفي الحديث المتفق (٢) عليه بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال «المرء مع من أحب» وفي الحديث الآخر «من أحب قوما فهو منهم» وفي رواية «حشر معهم». وقال الإمام أحمد: (٣) حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبي وائل عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلاقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة».

قال شريك: فحدثنا الأعمش عن تميم بن سلمة عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير عن النبي ﷺ مثله، تفرد به أحمد من هذين الوجهين. وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى فى حكم الله وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبية، بل يدلون بوارث كالأخالة والخال والعممة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحاً فى المسألة بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث» (٤).

قالوا: فلو كان له حق لكان ذافرض فى كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأنفال ولله الحمد والمنة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل

(٢) البخاري برقم (٦١٦٨)، مسلم (٢٦٤١).

(٤) تقدم تخريجه.

(١) حسن: الترمذي (١٠٨٤).

(٣) صحيح: المسند (١٨٧٣).